الإِعْجازُ البَلاغِيُّ لِلْقُرْآنِ الكَرِيمِ

دراسة وتطبيق

تَأْلِيفُ

د/ مُحَمَّد السَّيِّد مُوسَى

الطَّبْعَةُ الأُولَى

٢٠٠٦م - ١٤٢٧هـ

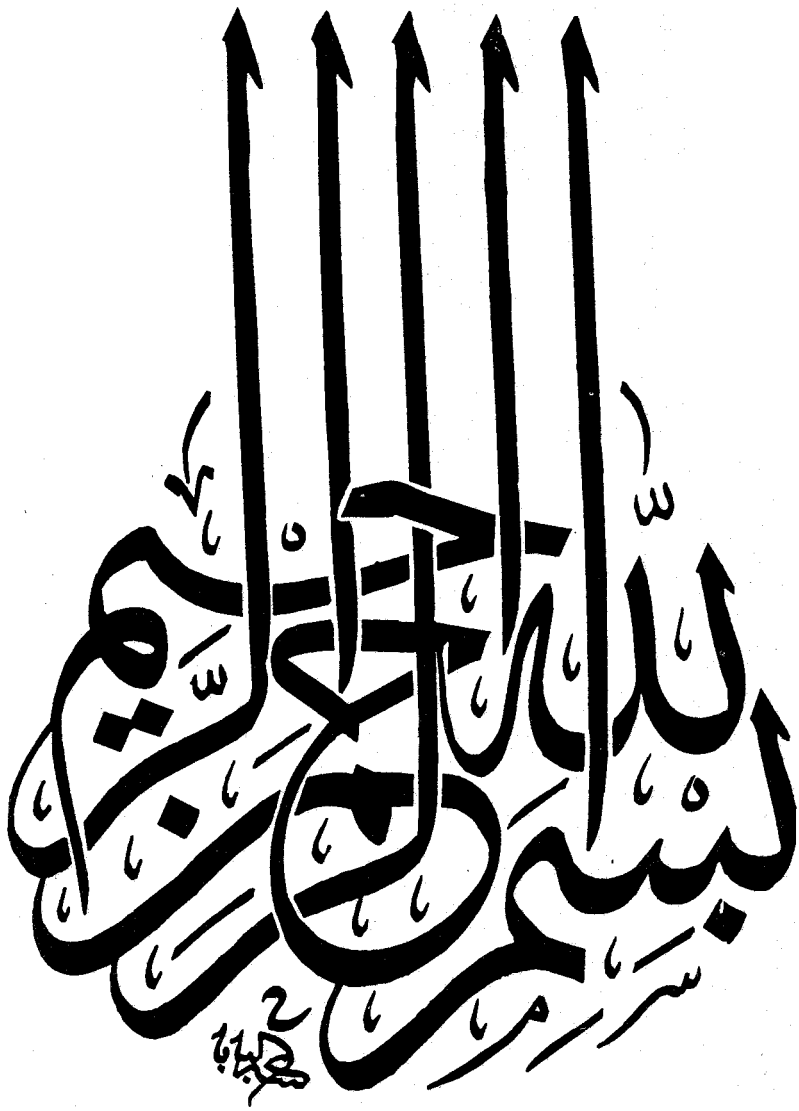
بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة[1]

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا كثيرًا.

وبعد،،،

فإن القرآن الكريم أعظم أنيس وخير جليس، لا يمل حديثه ولا تنفد عجائبه، وترداده يزداد فيه تجملًا، وإن من أسرار القرآن العظيم وروعة بيانه أنك كلما أبحرت فيه ازددت تعمقًا وشوقًا، وكلما نهلت من فيضه ومعينه الصافى ازددت به تعلقًا وتشبثًا، وما يبعد عنه إلا من جفا قلبه وغلظ كبده.

وهذا كتاب الله تعالىٰ الذى شغل العالم منذ نزوله إلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو مصباح الظلام ومنهل البيان الذى وقف فحول العرب وفصحاؤهم أمامه عاجزين مشدوهين، وهم الذين طالما خاضوا معارك البلاغة والبيان، وتباروا فى فنون القول وأسراره حتى أسروا القلوب والأذهان بسحر بيانهم وتبيانهم، وها هم أولاء يقفون أمام البيان الأعظم مأسورين مشدوهين عاجزين!!

وقد جاء أسلوب القرآن الكريم فى الغاية العظمى من البلاغة والفصاحة، وخرج عن جميع وجوه النظم المتعارف عليها فى كلام العرب، فتوافر العلماء على البحث فى أسراره واستخراج دُرره، فصنف فيه الزملكانى والفراء وأبو عبيدة وابن قتيبة

---

(١) ألقى هذا البحث فى مؤتمر (إعجاز القرآن الكريم) السابع بكلية الشريعة بجامعة الزرقاء الأهلية بالأردن فى أغسطس ٢٠٠٥.

والإمام الرازى وعبد القاهر الجرجانى وغيرهم، (والواقع أن المصنفات الأولى فى الإعجاز، على اختلاف مذاهب أصحابها، جاءت أشبه بمباحث بلاغية مما قدروا أن إعجاز القرآن يعرف بها، وإن استوعبت أقوال المتكلمين فى وجوه الإعجاز، فرسائل الخطابى السنى، والرمانى المعتزلى، والباقلانى الأشعرى، تأخذ مكانها فى المكتبة البلاغية، وبعد ان أستقلت البلاغة بالتأليف والتصنيف، وجهت إلى خدمة الإعجاز البلاغى..الجرجانى يضع كتابه فى النظم والبلاغة ويقدمه باسم (دلائل الإعجاز)، وأبو هلال العسكرى يضع علم الفصاحة والبلاغة تاليًا لعلم التوحيد، والزمخشرى، وهو من المعتزلة، يقرر أنه لابد من علم البيان والمعانى لإدراك معجزة رسول الله ﷺ.

وجرى المتأخرون على أن يجمعوا فى الإعجاز كل ما قال السلف من وجوه، كصنيع الشيخ محمد عبده فى الفصل الذى كتبه فى تفسيره (تفسير الذكر الحكيم) عن الإعجاز[1].

(١) د. عائشة عبد الرحمن -الإعجاز البيانى للقرآن -ط٢ -دار المعارف بمصر -١٩٨٧ -ص٩٤..

الفَصْلُ الأَوَّلُ

دلالات التركيب

الفَصْلُ الأَوَّلُ: دَلَالَاتُ التَّرَاكِيبِ

جاء أسلوب القرآن الكريم فريدا لا يبارَى ولا يناهَض، وقد جاءت الكلمات والحروف في نسيجها وسياقاتها مجيئا له دلالته من حيث اختيار اللفظ وصلته بغيره من الكلمات وهيئته المختارة وسوف نقف مع بعض السياقات المختلفة لنأخذ من أسرارها ما يأذن به الله تعالى.

ويعد استهلال السورة مدخلا بليغا إلى موضوعاتها، ولذلك تباينت فواتح السور من الأسلوب الإنشائي بأنواعه المختلفة وبلاغته، إلى الأسلوب الخبري بأغراضه البلاغية، ومن صور الاستهلال الإنشائي لسور القرآن الكريم، ما يأتي:

الاستهلال بالنداء والأمر:

جاء النداء في مطلع بعض السور[1] بـ (يا أيها الذين أمنوا) إذا كان في معرض التكليف، فيكون النداء خاصا بالمؤمنين لفتا لهم وإثارة لإيمانهم وتعظيما من شأنهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [المائدة ١]

فجاء النداء بإثارة حمية الإيمان في نفوسهم أولا، ثم جاء الأمر بالوفاء بالعقود، وهو أسلوب إنشائي آخر أدّى تركيبه مع النداء إلى تمكين الأمر بالوفاء في نفس المخاطب.

وقد جاءت بداية هذه السورة متفقة مع آخر السورة التي قبلها – سورة النساء –

---

(١) جاء في عشر صور (النساء - المائدة - الحج - الأحزاب - الحجرات - الممتحنة - الطلاق - التحريم - المزمل - المدثر)، انظر الزركشي في (البرهان في علوم القرآن) تحقيق محمد إبراهيم أبو الفضل - طبعة دار التراث - ١/١٧٨.

لتسير في مضمار واحد، حيث انتهت سورة النساء ببيان جانب من الحقوق المالية في الميراث، لكي تؤدى هذه الأمانات وتلك الحقوق إلى أهلها وفاءً بأمر الله وقضائه، ومن ثم جاءت بداية سورة المائدة تحمل الأمر بالوفاء بالعقود، فهي نسيج من نسيج.

وهذه السورة الكريمة – سورة النساء – قد بدأت بالأمر بالتقوى في قوله تعالىٰ:

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء١]

وهذا الأمر بالتقوى هو ما انتهت به السورة السابقة – أيضا حيث يقول المولى عز وجل في ختام سورة آل عمران: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران ٢٠٠]

وكان النداء في مطلع سورة النساء بقوله تعالىٰ: (يا أيها الناس) لأن الخطاب بعده جاء فيما يشترك فيه جميع الناس – من أصل الخلقة من آدم – عليه السلام – وخلق زوجها – حواء من تلك النفس.

ولأن المقام مقام تربية الناس على التقوى فقد جاء السياق بـ (ربكم)، في قوله تعالىٰ اتقوا ربكم، وكذلك الشأن مع افتتاح سورة الحج، حيث يقول تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج ١].

وقد جاء النداء بـ(يأيها الناس) – أيضًا – لشمول هذا الأمر جمع الناس وأضاف (الزلزلة) إلي (الساعة) لإبراز هول المشهد، فتظهر الحركة العنيفة من لفظ الزلزلة وتكرار حرفيّ الزاي واللام يمثل تلك الحركة بتكرارها ورجفتها، بينما يقوم لفظ (الساعة) بإحضار تلك الصورة في سرعة و كأنها تقع في هذه الساعة و قد زاد من

تصور هول المشهد، الإخبار عن (زلزلة الساعة) بـ (شيء) علي الإبهام والتنكير التهويلي، ثم الوصف بـ (عظيم).

و من تناست بداية هذه السورة مع سابقتها (سورة الأنبياء) التي انتهت بقوله تعالي: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء ١١٢]

وهو دعاء من النبي ﷺ لربه أن يحكم بينه و بين المكذبين ويقضي بينهم،فجاءت بداية سورة الحج و كأنها جواب علي ذلك بأن الحكم والقضاء يوم القيامة الذي عبر منه بزلزلة الساعة (إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ).

وقد اختلف النداء في مطلع سورتيّ المزمل والمدثر، تبعًا لاختلاف الحالة التي عليها المخاطَب وهو النبي ﷺ فقال تعالى في سورة المزمل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وقال في سورة المدثر: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ﴾.

فالمزمل، كما قال ابن عباس - ﷺ - النائم، وهو الذي تغطى بغطاء النوم، فالسياق يعبر عن حالة النوم ليلًا، بغطاء فوق ما يلبسه النبي ﷺ، ولذلك جاء الخطاب بـ(المزمل) وأبرز المشهد الأمر بـ (قم الليل)، وقد يكون الأمر بالقيام بالليل، مجازا عن الصلاة،أي صلِّ الليل،و آثر التعبير بالقيام عن الصلاة إشارة إلي طول القيام فيها وكثرة تلاوة القرآن التي لا تكون إلا حال القيام في الصلاة.

أما الخطاب بـ (المدثر) فلم يكن النبي ﷺ في حالة النوم و إنما كان ذلك في أول الوحي، عند ذهب إلي السيدة خديجة ــ رضي الله عنها ــ وقال دثروني دثروني[1] بسبب ما أخذه من رؤية جبريل عليه السلام ولذلك ناسب هذا النداء، الأمر بعده

---

(١) الدثار: الثياب الذى يلبس فوق الثياب الذى يلى الجسد .

بالقيام للإنذار فهذا المقام يختلف عن القيام السابق في سورة المزمل، ولذلك ناسب كل مقام مقاله.

* الاستهلال بالأمر وحده في بعض السور القرآنية دون النداء[١]، وهو في خطاب النبي ﷺ خصوصا، يقول تعالي: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن ١]

أمر الله نبيه ﷺ أن يذكر لقومه أن الجن استمعوا إلي القرآن الكريم و جاء الفعل بالبناء للمجهول (أوحي) بالموحي ــ سبحانه ــ و هذا الحذف يناسب جو المشهد واستماع الجن للقرآن، والجن لا يراهم الناس، فهم محذوفون من الرؤية البصرية، فحذف لفظ الفاعل من السياق إشارة لهذا الغيب الذي اختص به الله. والله تعالىٰ أعلم.

الاسْتِهْلَالُ بِالأَمْرِ فِي المَعَوِّذَاتِ

(قل هو الله أحد) هذا أمر بالجهر بالتوحيد الخالص ولذلك جاء التصريح بلفظ الجلالة (الله) دون الرب للتأكيد علي الوحدانية وتخصيصها بالله سبحانه ولإثارة الاهتمام لما بعده، وقد آثر التعبير بقوله (أحد) دون (واحد) مثلًا، لأنها " صفة مشبهه مثل: حسن، وصيغة الصفة المشبهة تفيد تمكن الوصف في موصوفها بأني ذاتيٌّ له، فلذلك أوثر " أحد " هنا علي (واحد) لأن (واحد اسم فاعل لا يفيد التمكن. و (واحد) و(أحد) وصفان مصوغان بالتصريف لمادة متحدة، وهي مادة الوحدة، يعني التفرد، وقال ابن سينا: إن (أحد) دال علي أنه تعالىٰ واحد من جميع الوجود، وأنه لا

(١) ورد ذلك فى ست سور (الجن - العلق - الكافرون - الصمد - الفلق - الناس).

كثرة هناك أصلًا. وذلك متضمن لكونه سبحانه منزها عن الجنس والفصل، والمادة والصورة؟ والأعراض والأبعاض والأعضاء والأشكال والألوان وسائر ما يشلم الوحدة الكاملة والبساطة الحقة اللائقة بكرم وجهه عز وجل عن أن يشبهه شيء أو يساويه سبحانه شيء"[(١)].

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ - ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾

لماذا كانت الاستعاذة في الأولي: (برب القلق) وفي الأخرى: (برب الناس)؟!

إن في ذلك نكته بلاغية ينم عنها السياق وقبل ذلك، فإن هذا الاستهلال في السورتين يتناسب مع خواتيم ما قبلها فقد انتهت سورة الإخلاص بقوله تعالى: (ولم يكن له كفوًا أحد)، وفي ذلك إثبات الوحدانية المطلقة لله تعالى، فلا مثيل ولا نظير له سبحانه، ثم كانت بداية سورة الفلق؟ كل شيء فأخرج منه الحياة، ولا يستطيع أحد ذلك إلا الله، وهو ما ذكر في غير موضع (إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى) (فَالِقُ الإِصْبَاحِ)، والفلق كل شيء انشق عنه ظلمة العدم وأوجد من الكائنات جميعها، وخص في العرف بالصبح، فقيل: فلق الصبح [(٢)]".

فخص هنا الاستعاذة برب الصبح، لما فيه من النور والضياء بعد الظلام والحياة بعد الموت، وذلك أنسب لما ذكر من المستعاذ منه، وهو (مِن شَرِّ مَا خَلَقَ) علي العموم و (وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ) علي الخصوص، وهو الليل بظلامه،" وكان شر الأشياء الظلام فإنه أصل كل فساد، وكانت شرارته مع ذلك وشرارة السحر والحسد

---

(١) ابن عاشور - التحرير والتنوير - الدار التونسية للنشر - الجماهيرية الليبية - ٦١٤/٣٠.

(٢) البقاعى - نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور - تحقيق: عبد الرازق المهدى - ط١ - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٩٥ - ٦٠٤/٨.

(المذكورة في السورة أيضًا) خفية، خصها بالذكر من بين ما عمه الخلق ، لأن الخفي يأتي من حيث لا يحتسب الإنسان فيكون أضر [١] "

ولما ختمت هذه السورة بذكر التعوذ من الحسد: (و من شر حاسد إذا حسد)، والحسد أصل العداوة بين الإنس والجن، وهو يصدر ـ أيضا ـ من طبيعة بشرية يطلقه بعض الناس لبعضهم، كانت البداية في سورة الناس: (قل أعوذ برب الناس) فتوافقت مع خاتمة (سورة الفلق)، "وعرّف (رب) بإضافته إلي (الناس) دون غيرهم من المربوبين لأن الاستعاذة من شر يلقيه الشيطان في قلوب الناس فيَضِلون و يُضلِّون، فالشر المستعاذ منه مصبه إلي الناس "[٢].

وخص الذكر بالاستعاذة برب الناس، لأن هذه السورة جاءت "متضمنة للاستعاذة من شر خاص، و هو الوسواس، وهو أخص من مطلق الحاسد، و يرجع إلي المعايب الداخلة اللاحقة للنفوس التشرية التي أصلحها كلها الوسوسة، وهي سبب الذنوب والمعاصي كلها وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: وجه تأخرها ـ أي سورة الناس ـ عن شقيقتها عموم الأولي وخصوص الثانية، ألا تري عموم قوله: (من شر ما خلق) وإبهام (ما) وتنكير غاسق و (حاسد) والعهد فيها استعيذ من شره في سورة الناس وتعريفه ونعته، فبدأ بالعموم ثم أتبع بالخصوص ليكون أبلغ في تحصيل ما قصدت الاستعاذة منه "[٣].

---

(١) نفسه.

(٢) التحرير والتنوير ٣/٦٣٢.

(٣) المصدر السابق ٨/٦١٢.

الاسْتِهْلالُ بالقَسَم

أقسم المولى ﷻ بكثير من مخلوقاته في مطلع بعض سور القرآن الكريم[١]، وهذا القسم يرشد العقول إلى أهمية المقسم عليه ويؤدى إلى التشويق إلى ما يأتي بعده، ويأتي القسم في أول السورة مناسبا لما أقسم عليه كقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج ١-٣]، فالقسم هنا بالسماء وبروجها، وفى هذا القسم مناسبة لما أقسم عليه، فقد تضمن العبرة بقصة أصحاب الأخدود، ولما كانت الأخاديد خطوطا مجعولة في الأرض مستعرة بالنار أقسم على تضمنها بالسماء بقيد صفة من صفاتها التي يلوح فيها لناظرين في نجومها ما سماه العرب بروجا وهى تشبه دارات متلألأة بأنوار النجوم اللامعة الشبيهة بتلهب النار، وأما مناسبة القسم باليوم الموعود فلأنه يوم القيامة، مع ما في القسم به من إدماج الإيمان إلى وعيد أصحاب القصة المقسم على مضمونها ووعيد أمثالهم المعرض بهم ومناسبة القسم بـ (شاهد ومشهود) على اختلاف تأويلاته، قريبة من مناسبة القسم باليوم الموعود[٢].

وقوله تعالى: ﴿والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى. وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى﴾ [الليل ١-٤]، فالقسم هنا بالليل والنهار، وخَلْق الزوجين، ثم يأتي المقسم عليه وهو سعى الناس. والعلاقة بين القسم والمقسم عليه، علاقة ترابطية فهي أولا من مظاهر قدرة الله على الخلق والإبداع، فالله خلق الإنسان بنوعيه وخلق له الليل للنوم والراحة، وخلق النهار بنوره ليعمل ويجد، ولابد أن سعى الإنسان سيختلف

---

(١) يُعد القسَم -دون جوابه - من الأساليب الإنشائية.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٢٣٧.

كاختلاف الليل و النهار، فمنه الظالم المظلم كظلام الليل ومنه المشرق النافع كنور النهار وضيائه، وفى هذا تذكير بالحساب على السعي.

وقد يرد القسم ببعض أوقات اليوم في موضع آخر من مطلع سورة أخرى، ولكن بدلالة أخرى مغايرة لما سبق كقوله تعالى: ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾[الضحى١-٣]، فجاء القسم بوقتين محددين، الضحى برقته وشفافيته والليل ليس على إطلاقه، وإنما (إذا سجى) أى: إذا صفا ورق نسيمه، وهذا ليناسب المقسم عليه (ما ودعك ربك وما قلى) ما تركك ربك وما كرهك " فأطلق التعبير جوا من الحنان اللطيف، والرحمة الوديعة، والرضي الشامل، والشجى الشفيف، ويقسم الله سبحانه، بهاتين الآيتين الرائقتين، فيربط بين ظواهر الكون ومشاعر النفس[١].

وقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[العصر١-٤]، فلم يأت القسم هنا بالليل ولا بالنهار ولا بالشمس أو نحو ذلك، وإنما جاء بما يشمل كل زمان وعصر. وفى ذلك مناسبة للمقسم عليه فالعصر هو عمر الإنسان، إن لم يغتنمه بالعمل الصالح، عصره وأصبح في خسر.

الاسْتِهْلَالُ بِالاسْتِفْهَامِ

جاء الاستفهام في صدر ست سور من القرآن الكريم[٢]، وقد جاء في أكثرها يحمل غرض التقرير الذي جاء بصيغة (هل) كما في سورتي الإنسان والغاشية يقول تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾[الإنسان ١]

---

(١) سيد قطب -في ظلال القرآن ٦/٣٩٢٦.

(٢) هى: الإنسان - النبأ - الغاشية - الانشراح - الفيل - الماعون..

وقوله تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية١]

(هل) تدل على التحقيق، إذ هي بمعنى قد، وقد زادها تحقيقا، مجئ الفعل الماضي، بعدها في السورتين (هل أتى) و(هل أتاك).

وقد يكون من الصواب أن نقول إن الأسلوب الإنشائي عن طريق الاستفهام بـ (هل) يأتي في الأمور الهائلة، والأحداث الجسيمة لمزيد من التشويق والتنبيه على أهمية الخبر، كصدر سورة الإنسان، فالاستفهام حمل غرض التقرير، أو الإقرار بحقيقة الإنسان، بأن الله أوجده بعد أن لم يكن شيئا يُذكر لحقارته وضعفه[١]، وقد حمل الاستفهام غرضا آخر، وهو الإنكار على ما يقطع بأنه لا يُترَك سُدىً (هل أتى) أي بوجه من الوجوه، (على الإنسان)، أي هذا النوع الذي شغله يراد به ويراد له لعظم مقداره في نفس الأمر الأنس بنفسه والإعجاب بظاهر حسه والنسيان لما بعد حلول رمسه[٢].

وأتى أسلوب الاستفهام بـ(هل) في صدر سورة الغاشية، وهى تتحدث عن أمر هائل وحدث عظيم، وهو الغاشية، أي القيامة.. واشتقاق اللفظ يزيد المشهد هولا، لأنه مشتق من الغشيان وهو التغطية وقد ورد الاستفهام بـ (هل) في مواضع أخرى من القرآن الكريم، يحمل من بين أغراضه التهويل أو الإنكار على فعل قبيح، أو الإخبار بحدث عظيم كمجئ (هل) في مشهد من مشاهد التهويل في قوله تعالىٰ: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام﴾[البقرة ٢١٠]

---

(١) ابن كثير - تفسير القرآن الكريم - تحقيق الشيخ الصابونى - ط٧ - دار القرآن الكريم - بيروت - ١٩٨١ - ٥٨/٣.

(٢) نظم الدرر ٢٥٩/٨.

ومجئ (هل) في معرض الإنكار على الكافرين وتوبيخهم، كما في قوله تعالىٰ ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[فاطر ٣] فقد أخذ في التنكير على الكافرين والجاحدين، وفيه إثبات للوحدانية وخصوصية الرازق.

وقد جاءت في عرض حدث غيبى مهم، كما في قوله تعالىٰ ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾[ص ٢١] ولأهمية الحدث عبر النبأ دون الخبر، فوراء القصة هدف وغرض، وهو المراد وقوله تعالىٰ ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ وقوله تعالىٰ ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾، بينما يكثر الاستفهام بـ (ألم) في مقام التذكير بنعم الله وفضله، كقوله تعالىٰ ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ وقوله تعالىٰ في التذكير بنعم الله وفضله في صدّ أصحاب الفيل عن البيت الحرام وهلاكهم ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾ وقوله تعالىٰ في مقام ذكر النعم والفضل في غير فواتح السور: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾[الحج٦٣] وقوله ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾[الحج٦٥] وقوله ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾[النور ٤٣]

وغيرها كثير في القران الكريم وقد تأتى - أيضا في مقام التوبيخ والتبكيت والتعجب بـ (ألم تر) لاستحضار المشهد وكأنه رأى عين، كقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾[البقرة ٢٥٨].

الاستِهْلَالُ بِالجُمَلِ الخَبَرِيَّةِ

تأتى بعض السور حاملة في صدرها الجملة الخبرية، وذلك للتنبيه على أمر عظيم،

وللتأكيد على أهمية ما يأتي بعده، وقد تباين الاستفتاح بين الجملة الفعلية والجملة الاسمية وبين الأغراض البلاغية المستقاة من وراء ذلك، فقد يكون الغرض هو: تفخيم الحدث وتهويله، كما في قوله تعالىٰ

﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل١]

وأَمْر الله: أي عقابه للمشركين، أو هو يوم القيامة – كما قيل – وجاء الأسلوب الخبري في صدر هذه السورة الكريمة حاملا التهويل من ثلاثة وجوه، الأول: التعبير عما سيقع في المستقبل من عذاب أو قيامه بلفظ الماضي (أتى) تبينها على تحقق وقوعه. الثاني إضافة (أمْر) إلى لفظ الجلالة الله دون أن يقول مثلا: (أتى أمر ربكم)، لأن المقام مقام وعيد وتهديد. الثالث إدخال الخوف والفزع في نفوسهم عن طريق النهى (فلا تستعجلوه) ففيه دلالة على أعظم ما أخفى لهم من عذاب عظيم.

ومن ذلك – أيضا – مجئ الجملة الخبرية الفعلية في صدر سورةالأنبياء، حيث يقول تعالىٰ: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ فقد حملت الآية معنى الوعيد والتهويل، لإنذار الناس بقرب الحساب والقيامة وقوله: (للناس) متعلقة بالفعل، وتقديمها هي ومجرو رها على الفاعل لإدخال الروعة[1].

ومثل ذلك ما جاء – أيضا في صدر سورة القمر ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ وإسناد الفعل للفاعل المجازى (الساعة) (القمر) فيه تركيز على الحدث واستحضار له، فيكون أبعث على المهابة والهول، ومن الجمل الاسمية التي حملت نفس الغرض – التهويل – ما جاء في صدر سورة الحاقة ﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾، وقد

---

(١) الشوكانى – فتح القدير – تحقيق د. عبد الرحمن عميرة – ط ٢ – دار الوفاء – المنصورة – ١٩٩٧ – ٣/٥٤٣.

تلاحقت مظاهر الهول في مطلع هذه السورة الكريمة.. فالبناء اللغوي والصوتي للكلمة يدخل الهول والفزع في النفوس، لأنه يوم الثواب والعقاب، ثم الاستفهام التهويلي مرتين، وإعادة كلمة الحاقة بما فيها من مّد وتضعيف ثلاث مرات والأصل: الحاقة ماهي، أي، أي شيء هي، تفخيما لشأنها وتعظيما لهولها فوضع الظاهر موضع المضمر، لأنه أهول لها وقوله: وما أدراك، وأي شيء أعلمك ما الحاقة يعني: أنك لا علم لك بكنهها ومدى عظمها[١].

ومثلها ما جاء – أيضا في صدر سورة القارعة ﴿الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ فالافتتاح بلفظ القارعة افتتاح مهول وفيه تهويل وتشويق إلى معرفة ما سيخبر به، وإعادة لفظ القارعة إظهار في مقام الإضمار، وقد عدل عن أن يقال: القارعة ماهية، لما في لفظ القارعة من التهويل والترويع، وإعادة لفظ المبتدأ أغنى عن الضمير الرابط بين المبتدأ وجملة الخبر و(القارعة) وصف من القرع وهو ضرب جسم بآخر بشدة لها صوت و(ما) استفهامية، والاستفهام مستعمل في التهويل على طريقة المجاز المرسل المركب لأن هول الشيء يستلزم تساؤل الناس عنه[٢].

وقد يأتي الخبر في صدر السورة ليحمل عتابا على حادثة معينة وهو ما جاء في صدر سورة عبس، حيث يقول الله تعالىٰ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾، وهو تعبير رسم صورة غضب النبي ﷺ وانفعاله النفسي من جراء كلام ابن أم مكتوم ﷺ معه " وافتتاح السورة بفعلين متحملين لضمير لا معاد له في الكلام تشويق لما سيورد

---

(١) الزمخشري - الكشاف - تحقيق مصطفى حسين - ط ٣ - دار الريان للتراث - القاهرة - ١٩٨٧ - ٤/٥٩٨.
(٢) التحرير والتنوير ٣٠،٥٠٩،٥١٠.

بعدهما، والفعلان يشعران بأن المحكي حادث عظيم[١].

وقد يأتي الخبر في صدر السورة يحمل توبيخا على فعل، أو سلوك معين كقوله تعالىٰ في صدر سورة التكاثر: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾، التنافس والتفاخر بالكثرة شغلتهم عن القرآن والتدبر في الأحوال، وهذا الأسلوب توبيخ على هذا الفعل، وقد بلغ هذا التوبيخ مبلغه بالزجر والردع بقوله: (كلا) وتكراره، مع تكرار التهديد والوعيد فقال جل شأنه: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

وقد تأتى الجملة الخبرية في صدر السورة تحمل غرض التفخيم والتعظيم، وقد بلغ التعظيم مبلغه إذ يقول سبحانه: ﴿الرحمن علم القرآن خَلَقَ الْإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[الرحمن١] أسم مشتق من الرحمة للمبالغة، وهو أبلغ من رحيم، وقد اختصت البداية بهذا الاسم دون غيره من أسماء الله الحسنى، لمناسبة المقام والحديث بعده أى، فهو الذي أنزل القرآن رحمة للعالمين وهو – سبحانه الرحمن الرحيم بالإنسان وقال أبو على الفاسي[٢]: الرحمن: أسم عام في جميع أنواع الرحمة، يختص به الله تعالى، والرحيم إنما هو في جهة المؤمنين ، قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب ٤٣].

ومن الخبر التعظيمى فى صدر سور القرآن، ما جاء لتعظيم القرآن الكريم، وذلك في سورة النور ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، فجاء التعظيم هنا لسورة النور بصفة خاصة ومحددة لما اشتملت عليه من أحداث عظيمة وأحكام اجتماعية وتربوية جلية وكقوله تعالىٰ في تعظيم القرآن بصفة عامة في صدر

---

(١) نفسه ٣٠/١٠٣.

(٢) فتح القدير ١/٨١.

سورة الزمر ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾

وكقوله تعالىٰ في تعظيم القرآن – أيضا – بصفة عامة في صدر سورة (القدر) ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، ربما يكون التعبير بـ (أنزلناه) إشارة وتمييز للقرآن الكريم ساعة نزوله جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، كما روى في ذلك.

وقد جاء تعظيم القرآن في صدر السورة من ثلاثة أوجه[1]: الأول أنه أسند إنزاله إليه وجعله مختصا به دون غيره. والثاني: أنه قد جاء بضميره دون اسمه الظاهر شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التنبيه عليه. والثالث: الرفع من مقدار الوقت الذي أنزل فيه.

فِي الفِعْلِ وَمُتَعَلَّقَاتِهِ

قد يأتي الأسلوب حاملا الفعل بزمنه المعتاد، لكن يراد به معنى آخر ليكون أمكن في النفس باكتشاف خفايا المعنى من حيث لا يتوقع الإنسان، وهو ما يعرف في البلاغة بالالتفات؛ كقوله تعالىٰ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال٩]، فعبر عن الماضي بالمستقبل (تستغيثون) بدلا من (استغاث) مثلا ثم الانتقال إلى الماضي (فاستجاب)، ولعل النكتة البلاغية في ذلك أن الاستغاثة من العبد لربه، ينبغى أن تكون دائمة لا تنقطع، فعبر عنها بالاستمرار، أما الاستجابة فهي قريبة متحققة من الله تعالى، فعبر عنها بالماضي، ليكون ذلك أدخل للطمأنينة في النفس

(١) الكشاف ٤/٧٨٠.

وأمكن للثقة في الدعاء والاستغاثة، وكذلك أيضا – جاء التعبير بالمستقبل عن الماضي في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ [الأنفال١٢]، فالنعاس والماء والتطهير وذهاب الرجز والربط على القلوب والتثبيت والوحي إلى الملائكة، كل هذه الأمور قد حدثت ووقعت بالفعل، ولكن التعبير عنها قد جاء بالاستمرار أو الاستقبال، فهذه الأمور دائمة للمؤمنين، وفي التعبير عنها بالمستقبل استحضار لنعم الله تعالى وتذكير دائم للمؤمنين، فيكون أدعى على لبث الثقة بنصر الله في النفوس.

وقد تأتى الجملة الفعلية منفية والمراد النهى، وقد جاء ذلك في مواضع عديدة من القرآن الكريم: " وقد كان العرب إذا أرادوا المبالغة فى ترك الشيء عدلوا فيه عن النهى إلى النفي المحض العام، وصار ألزم في المنع، إذ صار من الأشياء التى تقع أصلا[1].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا منكم وأنتم معرضون وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [البقرة ٨٣-٨٤].

(لا تعبدون) أي لا تعبدوا إلا الله، و(لا تسفكون) أي: لا تسفكوا (ولا تخرجون أنفسكم) أي: لا تخرجوا أنفسكم وهو التفات من الغيبة إلى الخطاب، وقيمته أنه

---

(١) ابو حيان - البحر المحيط - ط٢ - دار الفكر - ١٩٨٣ - ١/١٣٠.

سبحانه خاطبهم لإعلامهم بالتكليفات، وهو أبلغ من أن يكون الكلام بالغيبة.[١]

أما قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف٥٧].

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ فقد فجاء الفعل (يرسل) بلفظ المستقبل، بينما جاء الفعل بلفظ الماضي في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الفرقان ٤٨].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [فاطر٩]، جاء التعبير بالضمير المفيد للاختصاص (هو) في سياق تقديم البشارة (بشرا) (بين يدي رحمته) وذلك مع الاستقبال (يرسل) ومع الماضي (أرسل) وقد جاء التعبير بلفظ المستقبل (يرسل) ومع الماض (أرسل).

وقد جاء التعبير بلفظ المستقبل في سورتي الأعراف والروم، لأن ما قبله في هذه السورة ذكر الخوف والطمع، وهو قوله (وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا)وهما في المستقبل لا غير فكأن (يرسل) بلفظ المستقبل أشبه بما قبله"[٢].

أما في سورة الفرقان، فلما تقدم ذلك أفعال ماضية وهو قوله تعالى (مد الظل) و(جعله) (ثم قبضناه) و(جعل لكم الليل) و(جعل لكم النهار) ناسب ذلك: (وهو الذي أرسل الرياح)، وأما آية فاطر فإنه تقدم قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ وهو المطر، وإنما يذكر بشكر النعم الماضية

---

(١) د/ فتح الله سليمان –الفعل في سورة البقرة –مكتبة الآداب –القاهرة –١٩٩٧ –صـ٨٣.

(٢) الكرماني –أسرار التكرار في القرآن –تحقيق عبد القادر عطا –ط٢ – دار الاعتصام – القاهرة – ١٩٧٦ – صـ٨١.

على زمن الشكر، فناسب (أرسل) ماضيًا[١].

وقد يقع التبادل في مواضع الكلمات بغية هدف بلاغي معين يثبت في النفوس، فيتمكن المعنى بصورته الحية في الأذهان، وقد جاء ذلك في مواضع كثيرة في القرآن الكريم فجاء الخبر مقدما على المبتدأ في تركيب بلاغي دقيق، كاختصاص الملك بالله – سبحانه – وقصره عليه وحده، كما في قوله تعالى: ﴿لله مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الشورى٤٩]، أو قصر العبودية على الله وحده، واختصاصه بالاستعانه كما في قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة٤]، أو كما في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ من دونه لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف ١٩٧]، فجاء تقديم (أنفسهم) مع النفي لاستحضار هذا العجز عن نصرة النفس فكيف بنصره غيرهم؟! وكقوله تعالى ﴿خُشَّعًا أَبصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾ [القمر٧]، فجاء تقديم الحال (خشعا) بصيغته وبنائه اللغوي ليرسم صورة حية ماثلة للعين لهذه الفئة وهم بهذه الحالة النفسية والذلة المرسومة في أبصارهم، فكان التقديم للاهتمام بإبراز هذا المشهد.

أما إذا صاحب الاستفهام التقديم، فإن ذلك يكون لغرض بلاغي دقيق وهو سوق الإنكار والتوبيخ مع غرض التقديم، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتخذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام١٤] وقوله عز وجل ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ﴾ [الأنعام٤٠] ففي هذا التقديم مزية بلاغية لا نجدها في غيره " وذلك لأنه قد حصل بالتقديم معنى قولك: أيكون غير الله بمثابة أن يتخذ وليا ؟ وأيرضى عاقل من نفسه، أن يفعل ذلك

---

(١) ابن جماعة -كشف المعاني في المتشابه من المثاني -تحقيق د/عبد الجواد خلف -ط١ -دار الوفاء -المنصورة - ١٩٩٠ -ص٢٧٧.

؟ وأيكون جهل أجهل وعمى أعمى من ذلك ؟ ولا يكون شيء من ذلك إذا قيل: أأتخذ غير الله وليا، وذلك لأنه حينئذ يتناول الفعل أن يكون فقط ولا يزيد على ذلك "[١].

وقد يأتي التقديم والتأخير في سياق آية واحدة، لغرض بلاغي اقتضاه الحال، كما في قوله تعالي: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة ١٤٣]

قال الزمخشري: " فإن قلت: لم أخرت صلة الشهادة أولًا وقدّمت آخرًا، قلت: لأن الغرض في الأول إثبات شهادتهم علي الاسم. وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيدًا عليهم[٢].

بينما جاء التقديم والتأخير في آيتين متباعدتين، كما في قوله تعالي: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم٢٧]

وقوله تعالي: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا . قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم ٨-٩]

فقال جل شأنه: (وهو أهون عليه) في سورة الروم بتأخير (عليه) – وقال: (هو عليّ هين) في سورة مريم بتقديم (عليّ).

قال الزمخشري: " هناك قصد الاختصاص، وهو محزه فقيل (هو علي هين) وإن

---

(١) عبد القاهر الجرجاني -دلائل الإعجاز -تحقيق محمود شاكر -الهيئة العامة المصرية للكتاب -القاهرة - ٢٠٠٠م -صـ١٢١.

(٢) الكشاف ١٩٩/١.

كان مستصعبًا عندكم أن يولد بين (شيخ فاني) – وعاقر، وأما ههنا فلا معنى للإختصاص.كيف والأمر مبني علىٰ ما يعقلون من أن الإعادة أسهل من الابتداء، فلو قدمت الصلة لتغير المعني "[١].

ومن تباين السياقات في التقديم والتأخير، ما جاء من تقديم ضمير المخاطب وتأخيره في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام ١٥١]

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم﴾ [الإسراء ٣١]

فقال في الأنعام (نرزقكم وإياهم) لأنه خطاب للفقراء، أي: لا تقتلوهم من فقر بكم، أما قوله: (نرزقهم وإياكم) فهو خطاب للأغنياء، أي خشية إملاق – فقر – يتجدد لكم بسببهم[٢].

إِبْدَاعُ الدَّلَالَةِ

تتفاعل عناصر الجملة فى النص لتنتج دلالات متنوعة ومتباينة، فيبرز دور السياق فى الكشف عن تلك الدلالات وتحديد دورها والإعلان عن إشارتها، وذلك عن طريق نمط الاستخدام اللغوى فى النص وتحريكه فى مواضع مختلفة تكرر فيها الكلمة أو تنتقل من مكانها، أو تغيب الكلمة أو الجملة بأسرها عن الوجود النصى، فتحضر خلفًا لها دلالة وغرضًا بلاغيًا يسمو بالمعنى ويرقى بالنص.

وإذا كان علم المعانى (يتصل بدراسة الأسلوب من حيث ما يعرض للجملة، فإن علم البيان يتصل بها من حيث ما يعرض للمفرد، فالمبدع فى مجال (البيان) تواتيه المقدرة

---

(١) الكشاف ٣/٤٧٦.

(٢) كشف المعاني ص١٦٩.

الفنية على إيراد المعنى الواحد فى صياغات متعددة، أو فى طرق مختلفة، وهى طرق تتميز بالتغاير فى الوضوح والخفاء، والتمام والنقصان، كما تتميز - أيضًا - بارتباطها بفكرة الإرادة، أو الإفادة المتمثلة فى الصياغة من خلال تداخل العلاقات بين الدال والمدلول وما يعرض لهذه العلاقة من زيادة أو نقصان، وهو أمر لا يمكن أن يتأتى وجوده فى الدلالات الوضعية التى لا تحتمل تحرك الدلالة أو اهتزازها، وإنما يتأتى ذلك فى الدلالة العقلية، وإن استمدت الثانية وجودها من الأولى)[1].

والمتتبع لأساليب الكلام الرصين يدرك أنماط الصياغة الأسلوبية والخصائص التركيبية التى تشكل بها النص، فهناك تغيرات تطرأ على نظام الجملة وعناصرها المرتبة فى نظامها المعهود، فيقدم ما حقه التأخير، أو يؤخر ما حقه التقديم، وهذا الأسلوب من الأساليب المهمة فى التركيب العربى، وعنده وقف البلاغيون يستلهمون إيحاءاته وأهدافه.

وكثيرًا ما وقف عبد القاهر الجرجانى أمام هذا الأسلوب، وقسمه إلى قسمين:

أولًا: تقديم ما يقال أنه على نية التأخير، وذلك فى كل شيء أقررته مع التقديم على حكمه الذى كان عليه وفى جنسه الذى كان فيه، كخبر المبتدأ إذا قدمته على المبتدأ والمفعول إذا قدمته على الفاعل.

ثانيًا: تقديم لا على نية التأخير ولكن أن تنقل الشيء من حكم إلى حكم، وتجعله بابًا غير بابه، وإعرابًا غير إعرابه، وذلك أن تجيء على كل واحد منهما أن يكون مبتدأ ويكون الآخر خبرًا له، فتقدم تارة هذا على ذاك، وأخرى ذاك على هذا[2].

---

(١) د. محمد عبد المطلب - البلاغة والأسلوبية - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٤ - ص ١٩٤.

(٢) دلائل الإعجاز - ص ١٤٢.

والكلام العربى يحمل كثيرًا من الصور فى مجال التقديم والتأخير وما له من دلالة بالغة الأثر، وذلك كالتقديم والتأخير فى الاستفهام، وفى النفى والإثبات وتقديم النكرة، وقد زخر كتاب الله العزيز بكثير من تلك النماذج، منها قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر ٦٤ - ٦٦].

فالتقديم للاختصاص، وقد جاء فى موضعين من طرفى الآية، فجاء فى أولها: (أفغير الله تأمرونى أعبد) والتقدير أتأمرونى أن أعبد غير الله؟! على تقدير (أن) ويشهد لذلك قراءة من قرأ بالنصب[1] (أعبد) والموضع الآخر للتقديم فى قوله تعالىٰ: (بل الله فاعبد) والتقدير: بل اعبد الله وفيه تنبيه للذهن على أحقية الله تعالىٰ بالعبادة وحده دون شريك معه.

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ [طه ٦٧ - ٦٨].

والتقدير: فأوجس موسى فى نفسه خيفة، فقدم المفعول على الفاعل، بعد أن فصل بين الفعل وفاعله بالمفعول به وحرف الجر، وفيه مراعاة للفاصلة، غير أن هذا التقديم بتلك الكلمة (خيفة) مع التصدير بقوله: (أوجس) دون غيرها ترسم مهابة المشهد وما انتاب موسى عليه السلام من خوف وقت إلقاء السحرة سحرهم.

ومن تلك المواضع قوله تعالىٰ: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ

---

(١) الكشاف - ٤ / ١٤١.

كَفَرُوا ﴾ [الأنبياء: ٩٧]. فإنه إنما قال ذلك ولم يقل: فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة لأمرين: أحدهما: تخصيص الأبصار بالشخوص دون غيرها؛ أما الأول فلو قال فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة لجاز أن يضع موضع شاخصة غيره، فيقول: حائرة، أو مطموسة، أو غير ذلك، فلما قدم الضمير اختص الشخوص بالإبصار دون غيرها، وأما الثانى فإنه لما أراد أن الشخوص خاص بهم دون غيرهم دل عليه بتقديم الضمير أولًا ثم بصاحبة ثانيًا، كأنه قال: فإذا هم شاخصون دون غيرهم، ومن هذا النوع قول النبى صلى الله عليه وسلم، وقد سئل عن ماء البحر، فقال: (هو الطهور ماؤه الحل ميتته)، وتقدير الكلام: هو الذى ماؤه طهور وميتته حل؛ لأن الألف واللام ههنا بمعنى (الذى)[1].

ومن أمثلة الجار والمجرور، والفصل بهما بين الفعل وفاعله قول الشاعر:

سعدت بغرة وجهك الأيام وتزينت ببقائك الأعوام

فالتقديم هنا بقوله (بغرة وجهك) وقوله: (ببقائك) وفيه إثارة للذهن للالتفات إلى إشراقة الوجه وأثره فى سعادة الأيام، والتنبية إلى أثر وجوده بين الناس، فجعل أعوامهم مزينة، ونحو قول شاعر بغداد فى العصر العباسى محمد بن وهيب فى مدح المعتصم بالله:

ثلاث تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو اسحق والقمر

(ثلاثة) تقديم موصوف بقوله: (تشرق)، وقد حذف الجار، والتقدير: تشرق فى الدنيا، (أو ضمن أشرق بمعنى أضاء الدنيا فاعله، والضمير العائد إلى الموصوف هو

---

(١) ابن الأثير – المثل السائر – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – المكتبة العصرية – بيروت – ١٩٩٥ – ج ٢ ص ٣٨، ٣٩.

المجرور فى قوله: (ببهجتها) أى بحسنها، أى تصير الدنيا منورة ببهجة هذه الثلاثة، أى وببهائها، والمسند إليه هو كنية المعتصم بالله، والقمر)[١].

فالتقديم يقع من النفس موقعًا حسنًا عندما يثير فى النفس شوقًا وتطلعًا إلى ذكر المؤخر، فيتمكن المعنى – حينئذ – تمكنًا مؤثرًا، لأن حاصل المعنى إذا تأتى بعد جهد وإعمال ذهن كان أعز وأرسخ.

التَّكْرَارُ

التكرار صورة من صور الإطناب، وهو أسلوب له مزية خاصة فى تقرير المعنى وتوكيده، إذا لا يأتى فى السياق عبثًا أو ترفًا، ولكنه يأتى ليؤدى فلسفة فنية تبرز وظيفة المقام وعناصر الموقف، فيصبح الملتقى ذا (تجاوب يقظ مع البعد النفسى للتكرار من حيث إشباع توقعه وعدم إشباعه فتثرى تجربته هو الآخر بثراء التجربة الشعرية المتفاعل معها، وتكمن الدوافع الفنية للتكرار فى تحقيق النغمية والرمز لأسلوبه، ففى النغمية هندسة الموسيقى التى تؤهل العبارة وتغنى المعنى)[٢].

والتكرار يعمل على إثارة الذهن بما يثيره فى النفس من إيقاع وتجاوب وجدانى يعمل على تنشيط ملكة التأويل وحاسة التأمل، ولما كان القرآن الكريم فى إعجاز آياته يخاطب الملتقى فى تأملاته العقلية والوجدانية، وقد زخر فى كثير من المواضع بهذا الأسلوب، ومن ذلك قوله تعالىٰ فى مقام الزجر والتحذير من غفلة الدنيا والترهيب من يوم الدين: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر ٣ – ٤].

---

(١) الحسن بن عثمان المفتى – خلاصة المعانى – تحقيق د. عبد القادر حسين – دار النصر – القاهرة – ١٩٩٣ – ص ٢٠٣.

(٢) د. مصطفى السعدنى – البنيات الأسلوبية فى لغة الشعر العربى الحديث – منشأة المعارف – الإسكندرية – ص ١٧٣.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الانفطار ١٧ - ١٨].

وللتكرار دلالة تعرف بمقامها وسياقها، كدلالة لتكرار كلمة التقوى فى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء ١٠٥ - ١٠٨] فورودها فى المقام الأول غير الثانى، فقد جاءت كلمة التقوى أولًا فى سياق ذكر الرسالة والأمانة ﴿إنى لكم رسول أمين﴾ ليعمل على إزالة التكذيب من نفوسهم ويكون ذلك أوعى لاستجابتهم، والمقام الثانى لتأكيد النصح لهم خالصًا لله تعالى، راغبًا عن زخارف الحياة الدنيا.

وقد تكررت الكلمة لإبراز مقام الشفقة على المخاطب وإظهار مزيد من التحنن إليهم واستمالة قلوبهم، وذلك كما جاء فى تكرار كلمة (يا قوم) فى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر ٣٨ - ٣٩].

وعلى الجملة فإن ظاهرة التكرار فى القرآن الكريم هى من صور إعجازه، ويأتى التكرار فى مواضع كثيرة لإشباع المعنى العقلى والوجدانى لدى القارئ وأنه (ليس فى القرآن مكرر لا فائدة فى تكريره، فإن رأيت شيئًا منه تكرر من حيث الظاهر فأنعم نظرك فيه، فانظر إلى سوابقه ولواحقه لتنكشف لك الفائدة)[1].

وللعلماء قاعدة بليغة فى دلالة التكرار وهى: أن الشيء إذا تكرر تقرر، ولذلك فإن التكرار يكثر فى مواضع النصح والإرشاد ومواضع الردع والإنذار والقصص،

---

(١) المثل السائر ج ٢ ص ١٤٩.

وحيث يتكرر المعنى دون اللفظ من أجل التوضيح والتوكيد كما إذا قلنا لا إله إلا الله وحده لا شريك له فإن الجملة الثانية هى نفس الأولى ونحو أقبل ولا تدبر بخلاف (أقبل ولا تخف).

الفَصْلُ الثاني
إعجاز التقديم والتأخير

الفصلُ الثانى إعجازُ التقديمِ والتأخيرِ

إن سياقات القرآن الكريم تحمل دقائق نفيسة ولطائف بالغة لأسلوب التقديم والتأخير الذي عدَّه ابن جني إحدى صور شجاعة العربية وقوة لغتها، ويتنوع هذا الأسلوب وتتغير دلالته تبعًا لتغير السياق وحاجة المقام، فما كان لكلمة أن تتقدم مكانها دون غاية معنوية وهدف دلالي تريد أن تثبته في الجملة، والقرآن الكريم كلام الله المعجز وبيانه المحكم ويشتمل على هذه الأساليب التي ينبغي الوقوف على أسرارها ودلائلها.

ونقف فيما يلى مع المواقف الآتية:

أولًا: التقديم لمراعاة السياق وحسن انتظام الكلام.

ثانيًا: التقديم للاختصاص.

ثالثًا: التقديم بين الآية والآية، وهذه الوقفة تشمل ما يأتى:

تقديم صيغة على أخرى فى بعض آيات السورة الواحدة.

تقديم آية على آية فى النزول.

تقديم موضوع على آخر فى السورة الواحدة.

التقديم والتأخير فى المتشابه.

أَوَّلًا: التَّقْدِيمُ لِمُرَاعَاةِ السِّيَاقِ وَحُسْنِ انْتِظَامِ الكَلَامِ

إن الناظر فى بستان القرآن الكريم ليجد نفسه فى حديقة غناء، لا يكاد يخرج من ثمرة إلا ويجد نفسه قد تعلقت بأخرى يستنشق عبيرها ويطعم رحيقها فى إذكاء روحى منقطع النظير..

والناظر فى السياق القرآنى يجد هذا الأسلوب هو "مادة الإعجاز فى كلام العرب كله، ليس من ذلك شيء يمكن أن يكون معجزًا، وهو الذى قطع العرب دون المعارضة".[١] والسياق القرآنى يحمل الكثير من الخصائص التريكبية التى تسمو على لغة البشر قوة وصفاء ونقاء، وكان سياق التقديم والتأخير واحدا من فرائد القرآن وخصائصه، سيق لإبراز مقام الموقف بروحه وعمقه، وسوف نقف بإذن الله وتوفيقه مع بعض هذه السياقات:

التقديم فى بعض أسمائه سبحانه؛ كتقديم (العزيز) على (الحكيم) لأنه تعالىٰ عز فحكم كما فى قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[البقرة ١٢٩].

وذلك أن معنى (العزيز) لا يغالَب، والقادر الذى لا يمتنع عليه شيء أراد فعله. ومعنى (الحكيم) المدبر الذى يحكم الصنع ويحسن التدبير، فتكون القدرة متقدمة على حسن التدبير.[٢]

وبالنظر فى الآية الكريمة نجد فيها ترتيبًا آخر اقتضى تنظيم الأفعال داخل السياق فجاء الدعاء ببعث الرسول أولا ﴿وَابْعَثْ﴾ ثم التلاوة ﴿يَتْلُو﴾، ثم التعليم ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾ ثم التزكية والتطهير ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ وفى ترتيب هذه الأفعال وتقديم بعضها على بعض أثر عميق فى النفس إذ يوحي اختيار كلمة البعث فى قوله ﴿وَابْعَثْ﴾ بأنهم كانوا كالموتىٰ

---

(١) الرافعى -إعجاز القرآن والبلاغة النبوية -ط٤ - مطبعة الاستقامة -القاهرة - ١٩٤٥ -ص٢١٣.

(٢) د. محمد كريم الكواز -الأسلوب فى الإعجاز البلاغى للقرآن الكريم -ط١ -مكتب الإعلام والنشر -١٩٩٧ - ص٣١٢.

فى أحوالهم، لا يشعرون بشيء من صالح الحياة، فيكون الرسول فيهم بمثابة بعثهم من رقادهم الجاهلى وبموتهم القلبى وقوله ﴿مِنْهُمْ﴾ ليكون أرفق بهم وأعلم بشئونهم وأحوالهم فإذا تحقق هذا جاءت المرحلة الثانية وهى التلاوة بما فيها من خشوع وتدبر وترقيق للقلب والنفس، ولذلك اقتضاها السياق إيثارًا على (يقرأ) مثلًا، فإذا تحققت التلاوة بسياجها جاء التعليم الذى يشتمل على الكتاب أى القرآن الكريم وبما فيه من حكمه، أى فقهه الشريعة وفهم التأويل، " وقيل: إن المراد بالأيات: ظاهر الألفاظ والكتاب: معانيها، والحكمة: الحكم وهو مراد الله بالخطاب، والعزيز: الذى لا يعجزه شيء، قاله ابن كيسان، وقال الكسائى: العزيز: الغالب" [(١)] ولهذا أكد الضمير المتصل فى: ﴿إِنَّكَ﴾ بالضمير المنفصل ﴿أنت﴾ للدلالة على أنه لا غالب إلا الله تعالى، فهو- سبحانه وتعالى- غالب على أمره، يمضى أمره ويُمكّن لرسله، ولهذا اقتضى السياق فى ختام الآية قوله: ﴿العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ دون: العليم أو الخبير مثلًا، ولأن لكل مقام مقال، فقد جاءت السياقات المشابهة لهذا المعنى بـ﴿العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ نحو قوله تعالى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩].

فقد جاءت الآية على وجه التهديد والوعيد، أى: من ضل عن طريق الهداية وانحرف عن سبيل الحق بعد ما تبين له من البينات والحجج ما تبين ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وهذا أبلغ فى إثبات الروع والمهابة، ولو جاء نوع العذاب محددًا ما بلغ فى الحسن مبلغ قوله ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أى غالب لا يعجزه الانتقام منكم، ﴿حَكِيمٌ﴾

---

(١) الشوكانى: فتح القدير -تحقيق د. عبد الرحمن عميرة -ط٢ -دار الوفاء -المنصورة -١٩٩٧ -١/٢٧٦.

لا ينتقم إلا بالحق، وروى أن قارئًا قرأ غفور رحيم، فسمعه أعرابى فأنكره، ولم يقرأ القرآن، وقال: إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا الحكيم، لا يذكر الغفران عند الزلل، لأنه إغراء عليه " (١)

وإذا كان الزلل معناه التنحى عن طريق الحق والهداية، فإن أصله " الزلل فى القدم، ثم استعمل فى الاعتقادات والآراء وغير ذلك، يقال زل يزل زلا وزللا وزلولا، أى دحضت قدمه، وقرئ: "زللتم" بكسر اللام وهما لغتان " (٢).

وقد جاء الفعل (جاءتكم) مؤنثًا بتاء التأنيث، لأن الفاعل مؤنث (البينات) أى: الحجج الواضحة والبراهين الصحيحة،وقد يأتى مذكرًا مع (البينات) فى موضع آخر حسب اقتضاء المعنى، وذلك كما جاء فى قوله تعالىٰ: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران ٨٦].

فإن المقصود بالبينات فى هذا الموضع: القرآن الكريم، والله تعالىٰ أعلم، لأن ما دلت عليه الكلمة كان مذكرا، فقد جاء قبلها قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران ٨٥].

وكل من هؤلاء الأنبياءأنزل عليه كتاب، والكتاب مذكر، ثم ورد فى الآية التالية لها، كلمة (الإسلام)، والإسلام مذكر، فما دلت عليه كلمة البينات كان مذكرًا سواء أكان الكتاب أم كان الإسلام أم كان الكتاب والإسلام معًا، ولهذاجاء فعلها مذكرًا(٣).

---

(١) الزمخشرى -الكشاف -تحقيق مصطفى حسين -ط٣ -دار الريان -القاهرة -١٩٨٧ -١/٢٥٣.

(٢) فتح القدير ١/٣٧٤.

(٣) د. عودة الله القيسى -سر الإعجاز -ط١ -دار البشير -عمان -الأردن -١٩٩٦ -ص٦١.

وقال تعالىٰ في موضع آخر من نفس السورة الكريمة: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران ١٠٥]. فقدم التفرقة على الاختلاف لأن الأولى سبب في الثانية التي جاءت مترتبة عليها، فالاختلاف ناجم عن التفرقة وتابع لها، وهو ثمرة من ثمارها، وجاء الفعل (جاءهم) في صورة المذكر، لأن "كلمة البينات التي وردت في الآية تعني الكتاب -كذلك- تعني التوراة والإنجيل، وكل منهما كتاب" (١).

وتأتي مواضع تقديم العزة على الحكمة في السياقات التي تتحدث عن قدرة الله تعالىٰ ووحدانيته، وذلك نحو قوله تعالىٰ: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران ٦].

وقوله: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران ١٨].

وقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران ٦٢].

وقوله: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة ١١٨].

وقوله: ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [النمل ٩].

هذا ويتقدم ذكر العزيز على الحكيم -أيضًا- في مقام تنزيه الله وخضوع الكون له -سبحانه- وذلك نحو قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ

---

(١) نفسه.

الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية ٣٧].

وذلك لأن السياق قبل هذه الأية، تحدث عن عناد الكافرين وإعراضهم عن منهج الحق، فسلط الله عليهم عذاب النار لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون فناسب ذلك ذكر العزيز الذى لا يغلبه شيء ولا يفوته. ويفعل ذلك عن حكمة ويقول تعالىٰ: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية ٣٤- ٣٥].

وفى مقام التنزيه والتسبيح يقول الحق سبحانه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد ١].

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر ١].

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر ٢٤].

فناسب هذا المقام ذكر العزيز على غيره من الأسماء والصفات، وناسبه التقديم على (الحكيم)، لئلا يتوهم أحد أن الله تعالىٰ بحاجه إلى من يسبحه أو ينزهه، بل هو منزه بذاته، قدوس بجلاله، عزيز بقوته وجبروته وحكمته، وقد جاء فعل التسبيح بالماضي (سبح الله) كما فى أول الحديد والحشر (والصف أيضًا)، وختمت سورة الحشر بالمضارع (يسبح)، وافتتحت بها سورة الجمعة: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجمعة ١]. لأن هذه الكلمة " استأثر الله بها، فبدأ بالمصدر فى بنى اسرائيل [سورة الإسراء] فقال تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ. .﴾ لأنه

الأصل، ثم بالماضى لأنه أسبق الزمانين، ثم بالمستقبل، ثم بالأمر فى [سورة الأعلى] ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، استيعابا لهذه الكلمة من جميع جهاتها وقوله تعالىٰ: ﴿لِلَّهِ ما فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، وفى السور الخمس: ﴿لِلَّهِ ما فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: بإعادة (ما) وهو الأصل، وخصت هذه السورة بالحذف موافقة لما بعدها وهو: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد ٢]، لأن التقدير فى هذه السور: (سبح لله كل السموات والأرض) وكذلك قال فى آخر الحشر بعد قوله: ﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر ٢٤] أى خلقهما [(١)].

وتأتي -أيضًا- مواضع تقديم العزة على الحكمة فى السياقات التى تتحدث عن النصر، وذلك نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران ١٢٦].

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال ١٠].

فقدم البشرىٰ على الطمأنينة فى سياق أسلوب القصر بالنفى والاستثناء الذى تكرر مرتين، لأن الطمأنينة ناتجة عن البشرى التى تبعث السرور والراحة فى النفس فتنشأ الطمأنينة بالتبعية، وجاء التعبير بلفظ الجلالة (الله) لإثبات مقام العزة وغلبة أمر

---

(١) الكرمانى -البرهان فى متشابه القرآن - تحقيق أحمد خلف الله -ط٢ - دار الوفاء بالمنصورة -١٩٩٨ - ص٣٠٨.

الله فى دحض المشركين..

وقد جاءت الآية فى (آل عمران) "بإثبات (لكم) وتأخير به وحذف أسلوب (إن الله). وفى آية (الأنفال) بحذف (لكم) وتقديم (به) وإثبات (إن الله)؛ لأن البشرى هنا للمخاطبين، فبين وقال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال ٩]. فاكتفى بذلك.(١)

وفى مقام الحديث عن نصر الله لنبيه ﷺ والتمكين له فى الأرض ودحض كلمة الكافرين، تقدم ذكر العزيز على الحكيم، يقول تعالىٰ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة ٤٠].

فجاء التعبير بالفعل الماضى الدال على التحقيق واليقين فى الحديث عن النصر: (فقد نصره الله -فأنزل- وأيده- وجعل) بينما جاء التعبير بالمضارع فى تصوير مشهد الغار (إذ يقول لصاحبه لا تحزن..) وذلك لاستحضار صور المشهد بملابساته وما أحيط بهما من مخاطر أدت إلى فزع أبى بكر الصديق رضى الله عنه الذى نال شرف الكنايه عنه فى قرآن يتلى إلى يوم القيامة، وذلك فى قوله تعالىٰ: (إذا يقول لصاحبه).

وفى مقام الحديث عن كلام الله تعالىٰ والقرآن الكريم وتنزيله من السماء يتقدم -أيضًا- ذكر العزيز على الحكيم-، كما فى قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ

---

(١) نفسه ص ١٣٦.

وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان ٢٧].

فلو جعلت الأشجار التى فى الأرض أقلامًا لكتابة كلمات الله، وجعل مدادها البحر المتصل بمداد سبعة أبحر أخرى، فإن تلك الأقلام ومعها المداد تنفذ دون أن تنفذ كلمات الله.

وجاء التعبير بالشجرة على الإفراد دون الجمع لإرادة (تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة، حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة إلا قد بريت أقلامًا، فإن قلت: الكلمات جمع كلمة، والموضع موضع التكثير لا التقليل فهلا قيل: كلم الله؟ قلت: معناه أن كلماته لا تفى بكتبتها البحار، فكيف بكلمة؟) (١)

ومما ورد من تقديم العزيز على الحكيم فى مقام ذكر القرآن الكريم وتنزيله، وقوله تعالىٰ: ﴿حم تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجاثية ١، ٢]، ﴿حم تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الأحقاف ١، ٢].

هذا وقد يأتي ذكر (العليم) متقدمًا على (الحكيم) فى مواضع أخرى تبعا لاقتضاء المقام وحاجة السياق، وهذا كثير فى القرآن الكريم، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة ٣٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ

---

(١) الكشاف ٣/٥٠١.

أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء ١٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء ٣٢].

فجاء الخبر بـ (عليم) والصفة بـ (حليم) ليناسب سياق الآية قبلها، فقد كانت تتحدث عن الميراث والوصية التى تكون أحد أمرين: عدل أو جورفجاء التحذير بأن الله تعالىٰ يطلع على ذلك ويعلمه، وهو سبحانه (حليم) عن الظالم والجائر، فلا يعجل عليه بالعقاب عساه أن يرجع إلى رشده إذا ظلم فى وصيته، وفى الآية نكتة بلاغية أخرى ألا وهى تقديم تنفيذ الوصية على وفاء الدين، " فإن وفاء الدين سابق على الوصية، ولكن قدم الوصية، لأنهم كانوا يتساهلون بتأخيرها، بخلاف الدين "[1]

وفى مقام آخر يقول تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء ٢٦].

فهو سبحانه (عليم) بأمور الخلق وما يناسبهم ويصلحهم، وهو يهديهم إلى الرشاد بعلمه المحكم وحكمته البالغة، ولذلك تغاير السياق هنا، وجاءت الحكمة رديف العلم، وجاء الحلم رديف العلم فى سياق الآية السابقة للمعنى المشار إليه آنفًا.

وربما جاءت آيات أخرى حاملة فى سياقاتها أسلوبًا آخر على خلاف ما سبق، تقدم فيه (الحكيم) على (العليم) لعله يقتضيها السياق، وذلك نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ

---

(١) الزركشى – البرهان فى علوم القرآن – تحقيق محمد أبو الفضل – دار التراث – القاهرة – ٣/٢٦٥.

حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام ٨٣].

فسبق الحكم هنا العلم، لأن المقام اقتضى ذلك من خلال الحديث عن الحكمة التى لقنها الله -تعالى- نبيه إبراهيم، وأشار إليها بقوله: (وتلك) فاستطاع أن يحتج بها على قومه، وكان أن نال من الله الرفعة فى الدرجات، وذلك بمقتضى الحكمة الإلهية فى تصريف الشئون والأحوال.

ومثال ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف ٨٤]. فاقتضى المعنى أن تسبق الحكمة العلم فى هذا السياق -أيضًا- لأن الآية الكريمة تتحدث عن صفة الألوهية، وما يتصف به الله -عز وجل- من حكمة فى تصريف الكون وتشريع الأحكام وقد (ضمن اسمه تعالىٰ معنى وصف، فلذلك علق به الظرف فى قوله: (فى السماء) (وفى الأرض)، كما تقول: هو حاتم فى طى حاتم فى تغلب، على تضمين معنى الجواد الذى شهر به، كأنك قلت: هو جواد فى طى جواد فى تغلب)[1].

وقد سبق الحكم العلم -أيضًا- فى موضع آخر فى قوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات ٣٠]. فهذا مقام من مقامات التصريف الإلهى العجيب -أيضًا- وهو يحمل غرابة الموقف واستحالة حدوثه فى العرف البشرى، وكان ما كان، وولّدت العجوز من الشيخ الهرم!.

وفى موضع لا نظير له فى القرآن يتقدم (علىّ) على (حكيم) وذلك فى قوله تعالىٰ

---

(١) الكشاف ٤/٢٦٧.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى ٥١].

والمعنى: تعالىٰ عن أن يُكلم أو يكلم شفاها، حكيم فى تقسيم وجوه التكليم[1] ولتمام هذا المعنى وإحكامه، صدرت الآية بأسلوب القصر المتمثل فى النفى والاستثناء، ثم توالت النكرات فى سياقها لإفادة العموم: لبشر -وحيا- حجاب- رسولا، وذلك فى ظلال الإيقاع الصوتى الناشيء من قوله: وحيافيوحى، أو يرسل رسولا.

وفى سورة المجادلة تبادلت الكلمات المواضع تبعا للمعنى الوارد فى السياق، ففى قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة ٣] وقال -أيضًا- فى نفس السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة ١١] وقال -جل شأنه- فى نفس السورة أيضًا: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة ١٣].

فالموضع الأول والثانى يتعلقان بالعمل، فلا يمس الرجل زوجته التى ظاهر منها إلا بعد تحرير رقبة فى الموضع الأول، والثانى يتعلق بعمل التفسح فى المجالس والنشوز والارتفاع عنها، أما الموضع الثالث فلا يتعلق بعمل، وإنما يتعلق بالتخفيف

---

(١) البرهان فى متشابه القرآن -ص ٢٩٧.

الذى نزل إلى المؤمنين ورفع عنهم أمر الله بتقديم الصدقات عند مناجاة النبى ﷺ لعلمه -سبحانه- بمشقة هذا الأمر عليهم، فهو خبير بالنفوس وخبايا القلوب.

تقديم السمع: اطرد تقديم السمع فى القرآن الكريم سواء أكان على البصر فى الرؤية أو العلم أو القرب فى شأن الخالق أو شأن المخلوقين وذلك نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام ٤٦].

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء ١].

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه ٤٦].

وفى مجال تقديم السمع على العلم وما جرى مجراه قد أتى فى اثنين وثلاثين موضعًا، هى كل ما جاء فيه[1]، وقدم السمع على القرب فى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ ٥٠].

ولا يقف سر هذا التقديم عند تشريف المقدَّم على المؤخَّر، ولكن المقام يحتمل تفسيرًا آخرُ، فتقديم السمع على البصر لكونه أهم منه، لأن ما يحصل من ضروب المعرفة عن طريق السمع لا يحصل عن البصر، والبصر يتوقف فى تحصيله للعلم على

---

(١) المواضع هى: سبع آيات فى البقرة: ١٢٧، ١٣٧، ١٨١، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٤٤، ٢٥٦. وثلاث فى آل عمران: ٣٤، ٣٥، ١٢١، وآية واحدة فى النساء: ١٤٨، وآية واحدة فى المائدة: ٧٦، واثنتان فى الأنعام: ١٣، ١١٥، وآية واحدة فى الأعراف: ٢٠، وأربع آيات فى الأنفال: ١٧، ٤٢، ٥٣، ٦١، وآيتان فى التوبة: ٩٨، ١٠٣، ثم يونس ٦٥، يوسف، ٣٤، الأنبياء ٤، وآيتان فى النور ٢١، ٦٠، ثم الشعراء ٢٢٠، وآيتان فى العنكبوت ٥، ٦٠، ثم فصلت ٣٦، والدخان ٦، والحجرات ١.

وسائط لا يتوقف عليها السمع[١].

وقد ورد فى القرآن الكريم بعض آيات تقدم فيها البصر على السمع لعله يحملها السياق، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف ٢٦].

فتقدم البصر على السمع على خلاف المعتاد فى آيات الذكر الحكيم، لأن الحديث -والله تعالىٰ أعلم- يختص بجناب الله تعالىٰ وقدرته على العلم بدقائق الأشياء، فيستوى عنده كل شئ، يقول الزمخشرى: وجاء بما دل على التعجب من إدراكه المسموعات والمبصرات، للدلالة على أن أمره فى الإدراك خارج عن حد ما عليه إدراك السامعين والمبصرين، لأنه يدرك ألطف الأشياء وأصغرها، كما يدرك أكبرها حجمًا وأكثفها جرمًا، ويدرك البواطن كما يدرك الظواهر"[٢].

وفى سياق الحديث عن الكافرين خصوصًا فى مشهد القيامة وساحة العرض، يتغير -أيضًا- ترتيب السمع والبصر ليتقدم الأخير، يقول تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء ٩٧].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة ١٢].

---

(١) د. عبد العظيم المطعنى -خصائص التعبير القرآنى وسماته البلاغية - ط١ - مكتبة وهبة - القاهرة - ١٩٩٢ - ص ١٠٧ - ١٠٨.

(٢) الكشاف ٢/٧١٦.

فلم يعد هناك وجه انتفاع بسمع يفيد الطاعة والصلاح، بل لعله قدَّم البصر فى مثل هذه المشاهد لينبئ عن حالهم من الإعراض وعدم الاقتناع لازم لثبوت اليقين، وكأنهم كانوا فى ريب من ذلك اليوم، وها هم أولاء قد رأوه بأعينهم.

الجن والإنس: الجن والإنس من المخلوقات التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم كثيرًا، وقد جاءت على غير نسق واحد، بل جاءت بعض السياقات قدَّم فيها الجن على الإنس، وأخرى قدَّم فيها الإنس على الجن، وذلك تبعا لاقتضاء المقام وتحرير المعنى، فمن السياقات التى ورد فيها ذكر الجن مقدمًا، قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام ١٢٨].

فالخطاب هنا واقع فى يوم الحشر، وهو موجه إلى الجن على سبيل التبكيت على ما فعلوه من الاستكثار من الإنس وغوايتهم، ولمزيد من التحقير حذف فعل القول أو النداء والتقدير ويوم يحشرهم جميعًا فينادى عليهم أو فيقال لهم والله تعالى أعلم.

وفى سورة الذاريات حملت الآية جملة خبرية مقتضاها أن خلق الجن والإنس هو من أجل عبادة الله وحده، فقدم ذكر الجن لسبقه فى الخلق، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات ٥٦].

وكذلك الشأن إذا جاء ذكر الإنس مقدمًا على الجن (فلابد من سبب فى السياق اقتضى ذلك)، قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء ٨٨].

فقدم الإنس على الجن لأن التحدي وقع على الناس أولًا حيث أن الرسول ﷺ مبعوث أصلًا إلى الناس ويعضد التقديم -أيضًا- ما جاء بعد الآية المذكورة[1] قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴾ [الإسراء ٨٩-٩٠].

تقديم السماء على الأرض: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴾

عندما تُقدَّم السماء على الأرض فهذا هو الأصل الوارد فى سياقات القرآن، وهو لحكمة يقتضيها السياق ويتطلبها المقام، كقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [فاطر ٣٨].

ولا شك فى أن ما غاب فى السموات كان أعظم وأكثر وأشمل، فقدم ذكرها، ثم قال فى نفس السورة: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ [فاطر ٤٠].

فذكرت الأرض أولًا لأنه فى "سياق تعجيز الشركاء عن الخلق والمشاركة، وأمر الأرض فى ذلك أيسر من السماء بكثير، فبدأ بالأرض مبالغة فى بيان عجزهم، ثم قال سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن

(١) د. محمد الكواز - الأسلوب فى الإعجاز البلاغى للقرآن الكريم - ص ٣١٩.

بَعْده إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[فاطر ٤١]، فقدَّم السموات تنبيهًا على عظم قدرته سبحانه، لأن خلقها أكبر من خلق الأرض "(١).

وبالنظر إلى سياق الآيات السابقة نجد أن السموات مقدمة على الأرض، وهذا هو الكثير المعتاد في آيات القرآن الكريم، وقد تُقدم الأرض على السماء خلافًا لهذا الأصل، تبعًا لاقتضاء السياق كما في قوله تعالىٰ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة٢٢].

فبدأ بذكر الأرض -والله تعالىٰ أعلم- لأنها أقرب إلى النظر والتأمل وفيها المستقر والمعاش والفراش، وقد وردت هذه الآية في سياق توجيه النظر إلى وجوب عبادة الله وحده وشكره على نعمه، فقال تعالىٰ قبل هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة ٢١].

وقوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾[يونس ٦١].

لأن الكلام قبل الآية على أهل الأرض(٢)، حيث قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ.. ﴾[يونس ٦١].

---

(١) الزركشي في البرهان ٣/ ٢٨٥.

(٢) د. محمد الكواز - الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم - ص ٣١٣.

وقال الزمخشرى: فإن قلت: لم قدمت الأرض على السماء، بخلاف قوله تعالىٰ سورة سبأ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ ٣]، قلت: حق السماء أن تقدم على الأرض، ولكنه لما ذكر شهادته على شئون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم، ووصل بذلك قوله (لا يعزب عنه) لاءم ذلك أن قدم الأرض على السماء، على أن العطف بالواو حكمه حكم التثنية.(١)

وقدَّم ذكر الأرض على السماء -أيضًا- فى سورة إبراهيم فى قوله تعالىٰ: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [إبراهيم ٣٨]، فقدم ذكر الأرض أولًا " لأنها خلقت قبل السماء، ولأن هذا الداعى فى الأرض"، وقُدِّمت الأرض فى خمس سور هي: (آل عمران الآية ٥، ويونس الآية ٦١، وإبراهيم الآية ٣٨، وطه الآية ٤، والعنكبوت الآية ٢٢) (٢)، ولم يذكر الكرمانى الموضع السادس الوارد فى آية ٤٠ من سورة فاطر!.

وقد تتقدم الكلمة فى القرآن الكريم لاقتضاء المقام وسياق الأسباب التى ينبغى للمتأمل أن يراها ويعلمها، كتقديم غض البصر على حفظ الفرج، كما فى قوله تعالىٰ: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور ٣٠].

فالغض من البصر سبيل عفة الفروج وحفظها، وهى سبب -أيضًا- عدم حفظها،

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٥٥.

(٢) الكرمانى -البرهان فى متشابه القرآن - ص ٢١٣.

ولهذا قدم الغض من البصر على حفظ الفروج للتنبيه على شدة أثرها فى إثارة النفس، ومن ثم فالحث على فضيلة غض البصر من أجل العفةوقال الزمخشرى " فإن قلت: لم قدم غض الأبصار على حفظ الفروج؟ قلت: لأن النظر بريد الزنا ورائد الفجور، والبلوى فيه أشد وأكثر "[١].

وقد يكون التقديم لتعظيم المقدم وتشريفه، بتقديم لفظ الجلالة على الرسول ﷺ فى قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء ٦٩].

وفى الآية الكريمة إجمال فى قوله: (أنعم الله عليهم) ثم تفصيل (من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) وفيه إثارة ذهنية وتشويق نفسى للوقوف على تعريفهم، فإذا استشرفت لهذا وتهيأت له، وقفت على الترتيب من حيث العظمة والتشريف الأول فالأول: (النبيين والصديقين والشهداء والصالحين).

وقد يكون التقديم للفت الانتباه لعظم الرسالة وشرفها على النبوة، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحج ٥٢]، فقد ظهر من الآية عدم المساواة فى القدر والمنزلة بين الرسول والنبى، "فالرسول: من جمع إلى معجزة الكتاب المنزل عليه، والنبى غير الرسول: من لم ينزل عليه كتاب وإنما أمر أن يدعو الناس إلى شريعة من قبله "[٢].

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٣٠.

(٢) الكشاف ٣/ ١٦٤.

وقد يكون التقديم على عكس ما سبق، فيتقدم ذكر الكلمة من أجل بيان سوء المصير وتحقيره والتنفير منه، وذلك كما فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود ١٠٥-١٠٦].

فتصدير الآية بكلمة (يوم) مع تنكيرها أبلغ فى الروع والفزع، وفى نفى الكلام عن النفس على عمومها -كما أفاد التنكير أيضًا- فى سياق أسلوب القصر بالنفى والاستثناء، والتعبير بالمضارع (يأت) لاستحضار الصورة مزيد من إضفاء المهابة على هذا المشهد ثم بعد هذا التناسق البلاغى يأتى التقسيم والتفصيل: (فمنهم شقى وسعيد) مع تقديم الشقى للسبب السالف ذكره وهذا -أيضًا- فيه إجمال، أتى بعده التفصيل الآخر الذى تناول الشقى بتكرار ذكره وبيان مكانه (ففى النار) لتكون وعاء لهم، يعيشون فيها حياتهم بالزفير والشهيق، وهو ما عرفوه فى حياتهم الدنيا ومارسوه، ليستحضروا بذلك المشهد الحياة الحقيقة داخل النار -عياذا بالله-.

وقد تأتى الكلمة مقدمة لبيان الترتيب والسبق: فمن حيث السبق فى الزمان: قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ [آل عمران ٦٨].

ومن حيث السبق فى الإيجاد: قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة ٢٥٥]، " لأن العادة فى البشر أن تأخذ العبد السِّنَة قبل النوم، فجاءت العبارة على حسب هذه العادة، ذكره السهيلى وذكر معه وجها آخر؛ وهو أنها وردت فى معرض التمدح والثناء وافتقاد السِّنَة أبلغ فى التنزيه فبدأ بالأفضل؛ لأنه إذا استحالت عليه السنة فأحرى أن يستحيل عليه النوم "[(١)].

---

(١) البرهان للزركشى ٣/ ٢٤٠.

وقد تتقدم الكلمة من موقعها فى السياق بعدما جاءت فى صدر الآية على خلاف ذلك، كقوله تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة ١٤٣].

فقد تأخر المتعلق على شبه الفعل فى قوله (شهداء على الناس) وتقدم فى قوله (عليكم شهيدًا) وذلك لأن الغرض فى الأولى إثبات شهادتهم على الأمم وليس فيها معنى الاختصاص، وفى الثانية اختصاصهم يكون الرسول شهيدا عليهم وليس مجرد إثبات شهادته عليهم.(١)

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [آل عمران ١٠٦]، فصدر الآية جاء فى سياق المقابلة على هيئة الإجمال ثم التفصيل الذى بدأ بالذين اسودت وجوههم، فى حين أن البداية كانت بالذين ابيضت وجوههم، وفى ذلك تلوين للخطاب لإدخال البِشْر والتفاؤل أولًا لتعظيم هذه الفئة ثم الانتهاء بذكرهم أيضًا تعظيمًا وتشريفًا، ولذلك بدأ التفصيل بما أنتهى إليه الإجمال. والله تعالىٰ أعلم.

-ومن ذلك- أيضًا- قوله تعالىٰ: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ [النور ٢-٣].

قدم (الزانية) فى السياق الأول لأن الكلام كان عن حد الزنا وهو الجلد، وفيه

---

(١) د. محمد ابو موسى -خصائص التراكيب - ط٤ - مكتبة وهبة - القاهرة - ١٩٩٦ - ص ٣٦٤.

لفت للنظ وإيحاء للبشر للمحافظة على عفاف المجتمع عن طريق صيانة المرأة، لأنها إذا فسقت كانت سببًا فى إنتشار تلك الجريمة، أما المقام الثانى فكانت بداية الآية فيه بالرجل (الزانى) وهى مسوقة (لذكر النكاح، والرجل أصل فيه، لأنه هو الراغب والخاطب ومنه يبدأ الطلب)[1].

-ومن ذلك- أيضًا- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة ١١].

تقدمت التجارة على اللهو أولًا ثم تأخرت ثانيًا ربما كان الاعتبار هنا فى هذا المقام على أنها بمثابة الشيء الواحد، لأن السياق أفاد ذم هذا الفعل واستنكاره، وبدليل أنه قال: (انفضوا إليها) ولم يقل: انفضوا إليهما، لأن الإنسان إذا ترك خطبة الجمعة وانصرف إلى التجارة فقد فعل اللهو والعبث، فما بالنا إذا كان هذا مع النبى ﷺ ؟! هذا ومن المعلوم أنه لا يجوز أثناء الخطبة مجرد الكلام أو العبث بالثياب ونحوه، فما الأمر إذا كان الخروج للتجارة التى كان يصاحبها الطبل وقتذاك؟! فقدم اللهو فى المرة الثانية للتنبية على قبح فعلهم وشنيعه.

ثانيًا: التَّقْدِيمُ لِلاخْتِصَاصِ

قد يتقدم المفعول على فعله أو يتقدم الجار والمجرور أو الظرف والحال ونحو ذلك لأجل فضيلة الاختصاص، وهو " إما بالتعيين فى التردد، أو برد الخطإ، أي خطأ السامع فى تعيين المفعول ونحوه إلى الصواب، وهو المراد من التخصيص، كما فى اعتقاد العكس أو الاشتراك كقولك: زيدًا عرفت، لمن تردد. إشارة إلى أنه اعتقد أنك

---

(١) الكشاف ٣/ ٢١٢.

عرفت إنسانًا، لكن يتردد فى تعيين أنك زيدًا عرفت أم عمرًا، فقولك زيدًا عرفت، تعيين وتخصيص، أو لمن أخطأ فى اعتقاده، بأن اعتقد أنك عرفت عمرًا دون زيد، على عكس عرفانك، فقولك زيدًا عرفت، يفيد الاختصاص برد الخطإ"[1] وإذا قلنا الماء شربت لا غيره، فهذا من الاختصاص الذى يشمل: قصر القلب والإفراد والتعيين.

تقديم المفعول

ورد تقديم المفعول على فعله أو فاعله لمزية يقتضيها المعنى المراد بثه فى النفوس، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف ١٧٧].

فلو جاء السياق مثلًا: كانوا يظلمون أنفسهم لما تحققت مزية تخصيص أنفسهم وحدهم بالظلم، فجأة "تقديم المفعول به للاختصاص، كأنه قيل: وخصوا أنفسهم بالظلم لم يتعدها إلى غيرها"[2] وهنا إبراز للنفس التى ظلمت وتخيل لأثره عليها.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم ٥٠].

ففى قوله: (وجوههم) مجاز مرسل علاقته الجزئية، حيث ذكر الجزء، وهو الوجوه، ذكر الحاصل هو أن النار تغشى جميع أبدانهم، ولكن فى تخصيص تلك [الوجوه وتقديمها لفت للانتباه لما يلحقهم من المهانة والذلة وهم الذين أرادوا الوجاهة والمنزلة فى قومهم، ومن فى قوله: (من قطران) بيانية أى من هذا الجنس.

تقديم الجار والمجرور: قد يقع الظرف خبرًا، أو يتقدم الجار الأصلى فيكون خبرًا، وحينئذ "يشترط فى الظرف الواقع خبرًا، وفى الجار الأصلى مع المجرور كذلك –أن

---

(١) الحسن بن عثمان المفتى –خلاصة المعانى – تحقيق د. عبد القادر حسين – دار الاعتصام – ١٩٩٣ – ص ٢١٦.

(٢) الكشاف ٢/ ١٧٩.

يكون تامًا" أى: يحصل بالإخبار به فائدة بمجرد ذكره، ويكمل به المعنى المطلوب من غير خفاء ولا لبس"[١] ولابد للظرف أو الجار والمجرور من متعلق حتى تتم الفائدة أو المعنى، وإلا لم يكن منهما فائدةوسوف نقف مع بعض النماذج القرآنية لنرى ما أفاء الله به من أسرار بلاغية لهذا التقديم.

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة ٦٣]. لقد حملت الآية الكريمة على من يحادد الله ورسوله، فكان الزجر والوعيد الناشيء عن الاستفهام فى صدر الآيةوتوكيد "الخبر بأن واسمية الجملة لأن المنافقين مع علمهم بهذه الحقيقة نزلوا منزلة من يجهلها وينكرها لعدم جريهم فى الاعتقاد والسلوك وفق ما يقتضيه علمهم، وتقديم الخبر (له) على اسم (أن): (نار جهنم) لإفادة القصر، أى له لا لغيره، والإفراد فى (له) و (خالدًا) مراد به العموم"[٢]

ومن ذلك ما جاء فى قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم ١١- ١٢].

ففى تقديم الجار والمجرور فى لفظ الجلالة: (وعلى الله) فى الآيتين لإفادة القصر

---

(١) عباس حسن –ط ١٢ - دار المعارف بمصر – ١٩٩٥ – ١/ ٤٧٨.

(٢) د. عبد العظيم المطعنى –التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الحكيم – ط ١ – مكتبة وهبة – القاهرة – ١٩٩٢ – ٢/ ١٩.

والتخصيص، أى: التوكل والاعتماد لا يكون إلا على الله لا على غيره، وجاء لفظ (المؤمنون) فى الآية الأولى لأنه أمر من رسلهم للمؤمنين الذين آمنوا بالتوكل على الله وحده، وهذا من علامة الإيمان الصادق، وجاء لفظ (المتوكلون) فى الآية الثانية، ليكون معناه: "فليثبت المتوكلون على ما استحدثوا من توكلهم وقصدهم إلى أنفسهم على ما تقدم"(١).

ومن ذلك أيضًا ما جاء فى نفس السورة قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم ٢١].

جاء تقديم (لكم) على (تبعا) لإفادة تخصيص التبعية لهم وقصرها عليهم دون غيرهم وحبس حياتهم رهن إشارتهم وفيه إظهار مدى ندامتهم وحسرتهم على تلك التبعية لسادتهم الذين لم يستطيعوا أن يدفعوا عنهم ولا عن أنفسهم شيئًا وقد هلك الجميع.

ومما جاء من تخصيص الملك والحمد بالله وحده دون غيره قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن ١].

وقد وقف ابن الأثير رحمه الله أمام بعض الآيات الواردة فى مثل هذه السياقات السابقة ورفض أن تكون للاختصاص، ونعى على من احتسبها كذلك، كتقديم الظرف فى قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٤٤.

وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى ١٠].

﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى ٥٣].

﴿يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة ٢٢- ٢٣].

﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة ٢٩- ٣٠].

فقال ابن الأثير: "فإن هذا روعي فيه حسن النظم، لا الاختصاص، فى تقديم الظرف، وفى القرآن مواضع كثيرة من هذا القبيل يقيسها غير العارف بأسرار الفصاحة على مواضع أخرى وردت للاختصاص وليست كذلك"(١).

ولا عجب أن يكون التقديم فى تلك الآيات للاختصاص مع إفادة الغرض الذى أشار إليه، لأن المعنى يقتضى ذلك ويتطلبه، فكيف لا نقول أن تقديم (عليه) على (توكلت) يفيد قصر التوكل على الله لا على غيره؟!.

وكذلك الإنابة إليه دون غيره؟!، وهذا من كمال التوحيد ونقاء العقيدةولو فرضنا السياق جاء على غير هذا التقديم، وكان مثلًا: توكلت عليه وأنبت إليه، لافتقد السياق مزية حسن النظم، وجلاء المعنى – أيضًا – فإن الجملة الأخيرة التى تأت على التقديم لتفيد أن التوكل عليه وعلى غيره أو الإنابة إليه ولا يمنع أن تكون إلى غيره! ولكن بالتقديم سدت جميع الأبواب، وقصرت التوكل على الله وحده والإنابة إليه وحده دون غيره.

وفى آية الغاشية التى رفض ابن الأثير جعلها للاختصاص، قد ناقض نفسه بقوله:

---

(١) ابن الأثير – المثل السائر – تحقيق محى الدين عبد الحميد – المكتبة العصرية – بيروت – ١٩٩٥ – ٢/ ٤٠.

"أي: تنظر إلى ربها دون غيره، فتقديم الظرف هنا ليس للاختصاص"[(١)]!!.

فكيف لا يكون تقديم الظرف للاختصاص، وهو يقول: تنظر إلى ربها دون غيره؟!. ويقول الزمخشري: ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾، ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾، ﴿إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾، ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، "كيف دل فيها التقديم على معنى الاختصاص"[(٢)].

ومما جاء من التقديم لإفادة التخصيص ورعاية الفاصلة، قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة ٩٠].

﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء ١٤].

ومنه – أيضًا – قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم ٤٧].

فتقديم التوكيد (حقًا)، وتقديم خبر كان (علينا) لإشعار المؤمنين بالنصر المحقق الذى لامريه فيه، وفى هذا ترسيخ للعقيدة وحسن التوكل على الله والثقة فيه لا فى غيره، عندما يشعر المؤمن بأن النصر مختص بالله مقصور عليه سبحانه.

---

(١) نفسه ٢/ ٣٩.

(٢) الكشاف ٤/ ٦٢٢.

ثالثًا: التقديم بين الآية والآية

فى هذه الوقفة نرى أسرارًا أخرى لأسلوب التقديم مغايرة للمواضع السابقة، والمقصود بهذا التقديم الذى يأتى بين الآية والآية هو ما ننظر إليه من حيث تقديم صيغة على أخرىٰ فى بعض آيات السورة الواحدة، أو تقديم آية على آية فى النزول، أو تقديم موضع على آخر فى السورة الواحدة، أو التقديم والتأخير فى المتشابه.

رابعًا: تقديم صيغة على أخرى فى بعض آيات السورة الواحدة

وقد ورد ذلك فى بعض المواضع من آيات الذكر الحكيم لعلة يقتضيها السياق ويتطلبها المعنى، وذلك نحو قوله تعالىٰ: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة ٢٧٦].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة ٢٨٣].

فقد وردت صيغتان فى الآيتين وهما: أثيم – آثم، وتقدمت الصيغة الأولى على الثانية للفارق المعنوى بينهما: (أثيم) صفة مشبهة باسم الفاعل، وهى صيغة مبالغة تفيد الإقامة على فعل ذلك الإثم والإصرار عليه والتمعن فيه بلا مبالاة، وأثيم: من قوم أثماء، والأثيم: الفاجر[1].

وقد وردت صيغة (أثيم) فى سياق الحديث عن الربا ومحقه والنفير منه، قال

---

(١) ابن منظور – لسان العرب – بإشراف أ. على مهنا – ط ١ – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٩٩٣ – مادة (أثم).

الزمخشرى فى قوله تعالىٰ: ﴿كل كفار أثيم﴾: تغليظ فى أمر الربا وإيذان بأنه من فعل الكفار (قوم أثماء) لا من فعل المسلمين[١].

أما الآية الأخرىٰ فقد وردت فى سياق النهى عن كتمان الشهادة (ولا تكتموا الشهادة) ثم الوعيد والتهديد عن طريق أسلوب الشرط (ومن يكتمها فإنه آثم قلبه). وكتمان الشهادة أقل جرما من تعاطى الربا وممارسته الذى يتأذى منه المجتمع كله، بينما تأتى ثمرة كتمان الشهادة المرة على الفرد. وقد أسند الإثم إلى القلب لأن كتمان الشهادة (هو أن يضمرها ولا يتكلم بها، فلما كان إنما مقترفًا بالقلب أسند إليه، لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التى يعمل بها أبلغ، ألا تراك تقول إذا أردت التوكيد: هذا مما أبصرته عينى، ومما سمعته أذنى، ومما عرفه قلبى، ولأن القلب هو رئيس الأعضاء والمضغة التى إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله، فكأنه قيل: فقد تمكن الإثم فى أصل نفسه، وملك أشرف مكان فيه)[٢].

ومن ذلك ما جاء فى قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام ٦٣].

وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام ٦٤].

فقد وردت صيغتان فى الآية الكريمة: ينجيكم – أنجانا، وقدم الأولى على الثانية لاقتضاء المعنى الذى ينتفى الألفاظ ويحددها، فإن "الألفاظ فى القرآن نزلت من لدن القدرة الإلهية معبرة عن معانيهاالدقيقة، فإذا وردت مادة بصيغتين أو أكثر، فليس ذلك

---

(١) الكشاف ١/ ٣٢١.

(٢) السابق ١/ ٣٢٩.

فرارا من التكرار، وإنما يحدث لأن كل صيغة تعبر عن معنى لا تعبر عنه الصيغة لأخرى، مهما تقاربتا"[١].

فالصيغة الأولى التى جاءت بالتشديد (ينَّجيكم) إنما جاءت فى جناب الله وحقه، وجاءت فى صيغة الاستفهام المجاب عنه فى الآية التى تلتها مباشرة (قل الله ينجيكم)، فهى نجاة بالغة العظمة والقدرة، وهى تستمر نجاة بعد نجاة، أما الصيغة الثانية فقد كانت دعاء منهم، "وكانت (أنجى) دالة على قلة احتمال حدوث النجاة، فقد سبقها (لئن) وأداة الشرط (إن) تأتى لتقليل حدوث فعل الشرط، ولهذا بالغوا فى جواب (لئن) عن طريق التوكيد باللام ونون التوكيد الثقيلة: (لنكونن) رغبة فى تقوية حدوث فعل الشرط الذى تتوقف على حدوثه حياتهم"[٢].

ومن ذلك ما جاء – أيضًا – فى سورة غافر فى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر ٢٨].

فتقدمت صيغة اسم الفاعل (كاذبا) على صيغة المبالغة (كذَّاب)، فالأولى وقعت فى سياق يوحى بانتفاء الكذب من أصله لتقديم قوله: (وقد جاءكم بالبينات من ربكم)، فكيف بمن جاء بالبينات من ربه أن يكون متصفًا ولو أدنى اتصاف بالكذب؟!، ولذلك جاءت الصيغة (كاذبا) فى سياق (إن) الشرطية مع حذف النون من (يك) فلم يقل يكن وهو الأصل ليشعر بانتفاء ذلك، هذا بالإضافة إلى تنكير (كذبا) فى سياق الشرط لإفادة العموم، أى: وإن يك كاذبا كذبا ما، يعنى: إن وجد

---

(١) د. عودة الله منيع – سر الإعجاز ص ١١٨.

(٢) د. عودة الله القسى – سر الإعجاز ص ١١٩.

ذلك من أصله.

أما صيغة (كذّاب) فهى لإفادة المبالغة كما سبق ذكره، وهى ترسم صورة لهذا الذى يمارس الكذب ويتعاطاه فى كل أحوال حياته، حتى استحق تعريفه بالمسرف، وعدم الهداية من الله ﴿إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب﴾.

ومن ذلك - أيضًا - ما جاء فى سورة التحريم فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم ٣].

فجاءت صيغة (نبّأها) متقدمة على (أنبأك) ثم أعديت صيغة (نبأنى) مرة أخرى، لأن الصيغتين (نبأ) فى حق النبى ﷺ، وما ينبئ به فهو حق اليقين لأنه لا ينطق عن الهوى، و (من أنبأك) حكاية عن كلام أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها، وهى لم تبلغ مبلغ يقين النبى ﷺ وقال الراغب الأصفهانى: نبأته أبلغ من أنبأته ﴿فلننبئن الذين كفروا ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾ ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأنى العليم الخبير﴾ ولم يقل: أنبأنى، بل عدل إلى نبأ الذى هو أبلغ تنبيها على تحقيقه وكونه من قبل الله[1].

ومن ذلك - أيضًا - ما جاء بصيغة المبنى للمجهول سابقًا ومتقدمًا على المبنى للمعلوم خلافًا للمعهود، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ [الإنسان ١٥ - ١٦].

---

(١) الأصفهانى - المفردات فى غريب القرآن - تحقيق وائل عبد الرحمن - المكتبة التوفيقية - القاهرة - مادة (نبا).

وقوله تعالى: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ [الإنسان ١٩].

قال الكرمانى[١]: إنما ذكر الأول بلفظ المجهول لأن المقصود ما يطاف به لا الطائفون، ولهذا قال: ﴿ بآنية من فضة ﴾ ثم ذكر الطائفين فقال: ﴿ ويطوف عليهم ولدان مخلدون ﴾ فالصيغة الأولى جاءت بالبناء للمجهول لأن الفاعل غير مراد، ولكن المراد تسليط الضوء ولفت الذهن إلى النعم المتعددة فى السياق، فإذا " انتهى من تعداد ذلك، كان لائقًا التعقيب بذكر هؤلاء الغلمان الذين يقومون بخدمة المؤمنين ويقدمون لهم ما يقدم من ألوان هذه النعم التى ذكرت قبل، وإنه لمن المعقول حقًا أن يتقدم تعداد النعم على من يقومون بتقديمها "[٢].

ومن ذلك أيضًا – ما جاء مقدمًا بالتضعيف على وزن (فعل) على الفعل المهموز على وزن أفعل، يقول تعالى: ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ [الطارق ١٧].

وقد نص الكرمانى[٣] على أن ذلك ليس من التكرار، والتقدير: مهل: مهل، مهل، لكنه عدل فى الثانى إلى قوله: "أمهل" كراهة التكرار، وخالفه الزمخشرى واعتبره من التكرار، فقال: أى إمهل لا يسيرًا؛ وكرر وخالف بين اللفظين لزيادة التسكين منه والتبصير[٤].

أى: فى ذلك إشاعة جو من الطمأنينة والسكينة فى قلب النبى ﷺ وقلب المؤمنين ليثبتوا مع النبى ﷺ ويصبروا على أذى الكافرين هذا وإذا كان ختام السورة بهذا

---

(١) الكرمانى – البرهان فى متشابه القرآن ص ٣١٩.

(٢) د. عودة الله القسى – سر الإعجاز ص ١٠١، ١٠٢.

(٣) البرهان فى متشابه القرآن ص ٣٢٣.

(٤) الكشاف ٤/ ٧٣٧.

التكرار المؤدى للتوكيد، فإن فيه اتفاق واتساق مع بداية السورة بالقسم المفيد للتوكيد – أيضًا – ثم بتكرار كلمة الطارق التى أشاعت جرسًا قوى الإيقاع فى جو المشهد.

خَامِسًا: تَقْدِيمُ آيَةٍ عَلَى أُخْرَى فِى النُّزُولِ

من المعلوم أن من الآيات ما نزل لسبب من الأسباب أو لمعالجة موقف من المواقف التى وقعت فى حياة المسلمين ومنها ما نزل لإثبات حكم شرعى أراده الله لصالح الحياة والممات. وكانت هذه الآيات تناسب أحوال الناس وعمر الدعوة الإسلامية فيهم ومدى صلابة العقيدة فى ذلك الوقت، فما نزل بمكة يختلف فى الأحكام والشرائع والأسلوب عما نزل بالمدينة، فإن " من أسرار القرآن أنه يمسك بأحوال النفس الإنسانية كلها، ويجئ إليها بما يناسب كل حال منها فى مواجهتها للأحداث، وفى تصورها لها، وإحساسها بها "[(١)].

وإذا نظرنا إلى أول ما نزل من القرآن الكريم فسنجد قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق ١ - ٢].

فجاء الخبر بأن الله خلق الإنسان من (علق)، والعلقة " الدم الجامد، وإذا جرى فهو المسفوح، وقال: (من علق) بجمع علق، لأن المراد بالإنسان الجنس، وإذا كان المراد بقوله: (الذى خلق) كل المخلوقات، فيكون تخصيص الإنسان بالذكر تشريفًا له، وإذا كان المراد بالذى خلق: الذى خلق الإنسان، فيكون الثانى تفسيرًا للأول، والنكته ما فى الإبهام ثم التفسير، من التفات الذهن وتطلعه إلى معرفة ما أبهم أولًا، ثم فسر ثانيًا "[(٢)].

---

(١) عبد الكريم الخطيب – إعجاز القرآن – ط ١ – دار الفكر العربى – القاهرة – ١٩٦٤ – ٢/ ٢٩٤.

(٢) الشوكانى – فتح القدير ٥ / ٦٢٨.

وهذه الآية مكية وقد تقدمت فى النزول على آية سورة المؤمنون وهى مكية – أيضًا – وذلك فى قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون ١٢ - ١٤].

والعلة فى ذلك – والله تعالىٰ أعلم – أن آية العلق كانت فى بداية ظهور الإسلام وأولى نسائمه، ولم تكن النفوس مهيأة لاستقبال الأمر المفصل أو الشرح المطول بدقائقه، فأجمل لكى يمس القلب ويطرقه طرقًا خفيفًا يوقظ الذهن من غفوته وغفلته، ثم جاء بعد ذلك التفصيل ووصف المراحل الدقيقة فى سورة المؤمنون بعدما تهيأت النفوس لذلك واستعدت لاستقباله وفهمه.

-ومن ذلك – أيضًا – ما جاء من الآيات مقدمًا بعضه على بعض فى تحريم شرب الخمر، وذلك مراعاة لمقتضى الحالة التى كان عليها المسلمون من شربها فى ذلك الوقت، فلم يكن سهلًا أن ينقلهم الإسلام فجأة من المألوف إلى التحريم، فنزلت الآيات بالتدرج فى مراحل التحريم، فتقدمت أولًا آية بيان الإثم الأكبر والمنافع الأقل للخمر، فأصبح التنفير واقعًا فى النفس، يقول تعالىٰ: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة ٢١٩].

ثم نزل فى مراحل ثانية قوله تعالىٰ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ

أحدٌ منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفوا غفورا ﴾ [النساء: ٤٣].

فانتقل المسلمون مع هذه الآية نقله ثانية تالية للمرحلة الأولى، فصاروا يتجنبوا شرابها فى النهار الجامع لأطراف الصلاة، حتى أصبح الوقت المباح لشرابها هو الليل وقليل فاعله، ثم كانت المرحلة الأخيرة التى أتم الله - تعالى - فيها التحريم القاطع إلى يوم الدين، فقال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾ [الخمر المائدة ٩٠]، فهم فى هذه المرحلة كانوا على أتم الاستعداد النفسى والجسدى لاستقبال هذا الأمر وتنفيذه من فوره دون معاناة أو تململ.

صورة أخرى متكاملة تحمل أجزاء المشهد الواحد لو ضم بعضه إلى بعض، ولكنه يبدأ بأخف المراحل فيقدمها أولًا ثم يتدرج إلى الأشد حتى يبلغ الغاية ويفى بهاإن ذاك مع عصا موسى عليه السلام.

يقول تعالى: ﴿ قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هي حية تسعى ﴾ [طه ١٨ - ٢٠].

يقول تعالى: ﴿ وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون ﴾ [النمل ١٠].

ويقول تعالى: ﴿ وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ﴾ [القصص ٣١]

ويقول تعالى: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف ١٠٧]

ويقول تعالى: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء ٣٢]

ونفهم من هذا الترتيب أن أول اختبار لموسى مع العصا أنها ظهرت له فى صورة (حية تسعى) فوقع فى نفسه ما وقع من خوف ثم جاء الاختبار الثانى فى سورة "النمل" وهى متأخرة نزولًا عن سورة "طه" وفيها تظهر العصا "حية" فى ضخامتها "جانًا" فى انطلاقها واقتضاها، ولهذا لم يخف مجرد خوف، كما فعل عندما واجه الحية، ولكنه "ولى مدبرًا ولم يعقب"(١).

أما الصورة الثالثة فهى تحول العصا إلى ثعبان مبين، وهذا المشهد قد وصل إلى ذروته، لأن مشهد الإلقاء للعصا يغاير المشهدين السابقين الذين كانا على سبيل الإعداد والتجهيز النفسىأما المشهد الثالث فهو مشهد الموقعة والتحدى، فكانت الصورة التى جمعت "بين الحية والجان فى كيان واحد قد برزت كاملة فى قولة تعالى: ﴿فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين﴾ ثعبان لا كالثعابين إنما هو ثعبان عظيمة خفة الثعبان ونشاطه، وعظم الحية وضخامتها. وفى كلا الموضعين تقع الصورة التى تجئ عليها المعجزة على حال واحدة. ولهذا جاء النظم القرآنى لهما على سواء"(٢).

"فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين" ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف ١٠٧] ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء ٣٢]

---

(١) عبد الكريم الخطيب – إعجاز القرآن – ٢ / ٢٩٨.

(٢) نفسه ٢ / ٣٠٠.

سَادِسًا: تَقْدِيمُ مَوْضُوعٍ عَلَى آخَرَ فِى السُّورَةِ الوَاحِدَةِ

اختلف العلماء فى ترتيب سور القرآن هل هو توقيفى أو باجتهاد الصحابة، وكان جمهور العلماء على أنه ليس توقيفيًا بل هو من اجتهاد الصحابة – رضوان الله عليهم – أما الآيات فقد كان "الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفى لا شبهة فى ذلك، وقال عثمان ﷺ كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السورة ذات العدد فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا"[(١)].

ومعظم السور القرآنية قد اشتملت على موضوعات متعددة، كالسبع الطوال والمئتين والمثانى والمفصل وهذه آيات الموضوعية قد تقدم بعضها على بعض بتوقيف من الله عز وجل – وتظهر فى ذلك نكتة بلاغية، نتبيّنها فى المثال الآتى، ألا وهو [سورة البقرة] وهى على طولها ووضوح تفصيلها تتكون مما يأتى:[(٢)].

المقدمة: الآيات(١– ٢٠)

وهى بالتعريف بشأن هذا القرآن (أى: فى هذه السورة)، وبيان أن ما فيه من الهداية قد بلغ حدا من الوضوح لا يتردد فيه ذو قلب سليم.

المقصد الأول: الآيات (٢١–٢٥)

وجاء فى دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام، ثم عود على بدء فى أربع عشرة آية من (٢٦ – ٣٩).

المقصد الثانى: الآيات من (٤٠–١٢٦)

---

(١) السيوطى– الإتقان فى علوم القرآن – المكتبة الثقافية – بيروت – ١٩٧٣ – ١ / ٦٠.

(٢) انظر كتاب: النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز – ط ٧ – دار القلم – الكويت – ١٩٩٣ – ص ١٦٣ بتصرف.

فى دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة إلى ترك باطلهم والدخول فى هذا الدين الحق، وعلى ذلك مدخل إلى المقصد الثالث فى خمس عشرة آية من (١٦٣-١٧٧).

المقصد الثالث: الآيات من (١٧٨-٢٨٣)

فى عرض شرائع هذا الدين تفصيلًا.

المقصد الرابع: فى آية واحدة (٢٨٤)

ذكر الوازع والنازع الدينى الذى يبعث على ملازمة تلك الشرائع.

الخاتمة: فى آيتين اثنيتين (٢٨٥-٢٨٦)

وهى فى التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد، وبيان ما يرجى لهم، إنها كالبناء الشامخ الذى يبدأ فيه بإقامة الأساس من جذوره، ثم إقامة البنيان وتشييده ثم زركشته وتزينه.

فهذا الترتيب للموضوعات فى داخل السورة لهو كالحلقات المتشابكة يشد بعضها بعضها ويؤدى كل موضوع إلى أخيه فى تسلم رائق، يمهد له ويبسط ضوءه رويدًا حتى يلقى بدرره من الأعماق، ماذا لو جاء موضوع منها قبل الآخر؟! ما نرى إلا اختلال ميزان الفكر وتشتت الوجدان والشعور!!.

وقوفًا مع سورة أخرى، هى سورة النور، وهى مدنية ،وآياتها أربع وستون آيةوهى فى الآداب الاجتماعية والتربية النورانية التى تشع بنورها فى البيت والأسرة والمجتمع.

ويجرى سياق السورة حول محورها الأصيل -التربية- فى خمسة أشواط[1].

---

(١) سيد قطب - فى ظلال القرآن - ط ٢٥ - دار الشروق - القاهرة - ١٩٩٦ - ٤ / ٢٤٨٦.

الأول: يتضمن الإعلان الحاسم الذى تبدأ به، ويليه بيان حد الزنا، ثم بيان حد القذف، ثم حديث الإفك.

الثانى: وسائل الوقاية من الجريمة، وتجنيب النفوس أسباب الإغراء والغواية، فيبدأ بآداب البيوت والاستئذان على أهلها، والأمر بغض البصر والنهى عن إبداء الزينة، والحض على إنكاح الأيامى، والتحذير من دفع الفتيات إلى البغاء.

الثالث: يتوسط مجموعة من الآداب التى تتضمنها السورة، فيربطها بنور الله، ويتحدث عن أطهر البيوت، وفى الجانب المقابل الذين كفروا وأعمالهم ثم يكشف عن فيوض الله فى الآفاق.

الرابع: يتحدث عن مجافاة المنافقين للآداب الواجبه مع رسول الله ﷺ ويصور أدب المؤمنين.

الخامس: آداب الاستئذان والضيافة فى محيط البيوت، وآداب الجماعة المسلمة كلها كأسرة واحدة.

فيعجب المتأمل من هذا الترتيب المنطقى البديع الذى بدأ أولًا بتطهير المجتمع من الجريمة ووضع العقاب والزجر ليرتدع المجرم، وقدم ذلك على عرض وسائل الوقاية لتتهيأ النفس لاستقبال تلك الآداب الوقائية بنفس هادئة، وتقبل على أساليبها بحب ممتزج بالخوف من الله، وهذان الموضوعان لازمان للدخول فى الحديث عن آداب أخرى يربطها بنور الله.

ثم تصوير للآداب المفقودة فى حق المنافقين، فتقدم على تصوير آداب المؤمنين، فبدأ من الأدنى للتنفير منه، ثم للأعلى لشحذ الهمم وتنشيط النفس وترغيبها بعد ترهيبها.

يتقدم تنظيم العلاقات الأسرية الصغيرة داخل البيوت، لأن ذلك هو النواة والأساس الذى بنى عليه بعد ذلك تنظيم العلاقات بين الأسرة الكبيرة فى المجتمع المسلم ككل فيتقدم قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور ٥٨] (وهى الأسرة الصغيرة) على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور ٦٢] وهى الأسرة الكبيرة).

وفى وسط هذه الآداب تأتى استراحة قصيرة – إن صح التعبير – ليمضى السياق فى عرض مشاهد الكون ومظاهر الوجود الجميل والتأمل فى تقلب الليل والنهار وعرض مظاهر القدرة على الخلق والتنويع فى أشكال الخلق (وذلك فى الآيات من ٤١ – ٤٥) لتتوسط هذه الوقفة الكونية ما سبقها من آداب وتعاليم وما لحقها من آداب وتعاليم، فهذه السورة نموذج من ذلك التنسيق، لقد تضمنت بعض الحدود إلى جانب الاستئذان على البيوت، وإلى جانبها جولة ضخمة فى مجال الوجود، ثم عاد السياق يتحدث عن حسن أدب المسلمين فى التحاكم إلى الله ورسوله وسوء أدب المنافقين، إلى جانب وعد الله الحق للمؤمنين بالاستخلاف والأمن والتمكين، وها هو ذا يعود إلى آداب الاستئذان فى داخل البيوت إلى جانب الاستئذان من مجلس الرسول

ﷺ وينظم علاقة الزيارة والطعام بين الأقارب والأصدقاء، إلى جانب الأدب الواجب فى خطاب الرسول ودعائه "[١].

سَابِعًا: التَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ فِى المتَشَابِهِ

قد تأتى بعض الآيات متشابهة فى كلماتها، ولكننا نجد كلمة قُدّمت فى آية وأُخّرت فى أخرى لسر بلاغى أودعه الله فى السياق، وسوف نقف – بإذن الله وتوفيقه – مع بعض هذه النماذج القرآنية التى وردت عبر السور المختلفةومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة ١٢٣].

فالآيتان من مشاهد القيامة وساحة القضاء الأعلى، وقد سُبقت الآيتان بآية تامة التشابهة متحدة الكلمات وانتظامها، وهى قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة ٤٧]، ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة ١٢٢].

وهذا التكرار للحث على التذكر للنعمة والتحذير من الإعراض على الله ورسوله، فاليهود أمة جبلت على العناد والتمرد وذلك على الرغم من أنهم أكثر الأمم رسلًا وأنبياء، وقدم الشفاعة فى السياق الأول (آية ٤٨) "قطعًا لطمع من زعم

---

(١) فى ظلال القرآن ٤ / ٢٥٣٢.

أن آباءهم يشفعون لهم، وأن الأصنام شفعاءهم عند الله، وأخّرها فى الآية الآخرى (١٢٣) لأن التقدير فى الآيتين معًا: لا يقبل منها شفاعة فتنفعها تلك الشفاعة، لأن النفع بعد القبول، وقدم العدل فى الآية الأخرى ليكون لفظ القبول مقدمًا فيها "[١].

ومما يشد من أزر ذلك المعنى الذى يبرز قطع الأمل فى تلك الشفاعة، أنه جاء بـ (يومًا) على التنكير للتهويل ودفع النفس نحو الخوف والحذر، ونكر النفس مرتين للدلالة على العموم والشمول لكل نفس "وهو الإقناط الكلى القاطع للمطامع "[٢]، وقد جاء بالفعل (يقبل) مع (شفاعة) لأنها محل قبول على سبيل الرحمة والرأفة، وجئ بالفعل (يؤخذ) مع (عدل) لأن ذلك على سبيل الفداء[٣] ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة ٥٨].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف ١٦١].

ففى الآية الأولى ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ وفى الآية الثانية ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾.

وقف الزمخشرى على هذا الاختلاف على استحياء ولم يشأ الدخول فى غمارة وأعماقه، فاكتفى بقوله: " لا بأس باختلاف العبارتين إذا لم يكن هناك تناقض، ولا

---

(١) الكرمانى – البرهان – فى متشابهة القرآن – ص ١٠٨.

(٢) البيضاوى – تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب الخفاجى – المكتبة الإسلامية – تركيا – ١ / ٩٩.

(٣) د. محمد موسى (التنكير وأثره البلاغى فى سياق القرآن) ط ١ – مطبعة الأمل بالمنصورة – ٢٠٠١ ص ١٠٤.

تناقض بين قوله: ﴿اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا﴾ وبين قوله: (فكلوا) لأنهم إذا سكنوا القرية فتسببت سكناهم للأكل منها، وسواء قدموا الحطة على دخول الباب أو أخروها، فهم جامعون فى الإيجاد بينهم، وترك ذكر الرغد لا يناقض إثباته"[(١)].

والحق أن السياق اختلف فأدى إلى معان بلاغية دقيقة، فقد جاء صدر الآية فى السياق الأول بالفعل المبنى للمعلوم بإثبات (نا) لله تعالىٰ على التعظيم فقال: (وإذا قلنا) فناسب ذلك المقام ذكر (رغدا) على التنكير التفخيمى ولما كان الدخول فى قوله: (ادخلوا هذه القرية) غير السكن فى قوله (اسكنوا هذه القرية) لأن السكن يعنى اللبث والإقامة والاطمئنان، فقد جاء فى السياق الأول الفاء فى (فكلوا) والثانى (وكلوا)" وقدم (وادخلوا الباب سجدًا) على قوله: (وقولوا حطة) فى سورة البقرة وأخرها فى الأعراف، لأن السابق على هذه السورة (ادخلوا) فبين كيفية الدخول وفى هذه السورة (أى سورة البقرة) (وسنزيد) بواو، وفى الأعراف (سنزيد) بغير واو، لأن اتصالها فى هذه السورة أشد لاتفاق اللفظين، واختلفا فى الأعراف فكان اللائق به (سنزيد) فحذف الواو ليكون استئنافًا للكلام"[(٢)].

ومن التقديم فى المتشابه قوله تعالىٰ: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة ٧].

وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية ٢٣].

---

(١) الكشاف ٢ / ١٧٠.

(٢) الكرمانى – البرهان – فى متشابهة القرآن – ص ١١٠.

فى آية (البقرة) جاء الحديث قبلها عن المتقين ثم الكافرين الذين ختم الله على قلوبهم التى هى المضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، كما جاء فى الحديث الشريف، فكان الكلام فى هذه الآية على عمومهأما فى آية الجاثية فهى تتكلم عن خاصة بعينها تقع فى فئة من الناس، يتخذون العبادة بأهوائهم، ومن القراءات: (آلهة هواه) فينتقلون فى عبادتهم من حجر إلى حجر أو غيره حسبما يتراءى لهم فناسب ذلك تقديم الختم على السمع لأنه سمع التعقل والهداية وهو أداة ووسيلة لنقل الفهم، كما جاء فى قوله: ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف ١٧٩].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس ٢٠].

بداية نرى صدر الآية جاء بـ (جاء) دون (أتى) لأن (جاء) تحيط به معانى العلم واليقين وتحقق الوقوع والقصد[1] وبالنظر إلى الآيتين نجد تقديم (رجل) فى الأولى وتأخير فى الثانية لاختلاف المقام فيهما ففى الآية الأولى تقدم (رجل) لتسليط الضوء عليه ولفت الذهن إليه وما يحمله من نبأ المؤامرة، بوصوله إلى موسى – عليه السلام – يتغير الموقف ويخرج موسى متخفيًا مترقبًاأما فى الآية الثانية فالمقام يقتضى تسليط الضوء ولفت الانتباه إلى المدينة بصفة أساسية لا إلى الرجل، فتظهر المدينة على غفلتها وعدم اتباعها المرسلين ثم ارادة الرجل هدايتهمفتأخر الرجل هنا يبين أنه لم يكن محتاجًا للسرعة والعجلة ومسابقة الزمن بالقدر العظيم الذى كان يحتاجه المقام الأول

---

(١) محمد المنجد – الترادف فى القرآن الكريم – ط ١ – دار الفكر – دمشق – ١٩٩٧ ص ١٤٦.

ومن هنا يتبين بعد ما ذهب إليه الكرمانى فى قوله: " خصت فى هذه السورة (أى القصص) بالتقديم لقوله قبله: "فوجد فيها رجلين" ثم قال: (وجاء رجل) فاكتفى بالنظر إلى التقديم على أساس ذكر الرجلين من قبل لا غير!.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام ٧٠].

وقوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت ٦٤].

فآيتا (الأنعام والحديد) فى معرض الحديث عن الدنيا وأحوالها، وفيها تدرج من الأدنى إلى الأعلى فاللعب أولى مراحل الطفولة، والتكاثر فى الأموال والأولاد نهاية المطلب وقمة اعتلاء عروش الدنيا، أما آية (الحديد) فهى فى معرض المقابلة بين الدنيا والآخرة، فالأولى لهو ولعب والثانية هى الحياة البالغة، وكان لأسلوب المقابلة هنا حسن التنسيق والإيقاع الجميل، وهى "من جملة طرق العرض التى يلجأ إليها القرآن، وهى متكاملة متجانسة مع بقية الأساليب لأداء الأغراض والقيم التى يريدها المنهج القرآنى، لكنها تُعد من أبرز الطرق الواضحة فى العرض، وفى الأداء البيانى الذى

يسعى إليه القرآن "[١] وقال الكرمانى بدأ بذكر اللهو لأنه فى زمان الشباب، وهو أكثر من زمان اللعب: وهو زمان الصبا[٢].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون ٨٢ - ٨٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [النمل ٦٧ - ٦٨].

بتأخير اسم الإشارة (هذا) فى الأولى، وتقديمه فى الثانية، ولعل ذلك راجع إلى التفصيل المذكور فى آية المؤمنين: الموت والتراب والعظام، فأغنى التفصيل عن تقديم اسم الإشارة، وهو لم يقل فى آية النمل، وبقى أن نشير إلى أن الآيتين قد صدرتا بالقول: (قالوا)(وقال) إشارة إلى أنه زعم باطل ليس له رصيد من اليقين والحق، ثم يصور القرآن الكريم مدى اعتمال الانفعال فى نفوسهم وإصرارهم على العناد وذلك عن طريق أسلوب القصر بالنفى والاستثناء وبالأداة (إن) إيثار على (ما) مثلًا.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون ٢٤].

وقوله: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ [المؤمنون ٣٣].

---

(١) د. بن عيسى طاهر – المقابلة فى القرآن الكريم – ط ١ – دار عمار – عمان (الأردن) – ٢٠٠ – ٢١٣.

(٢) الكرمانى – البرهان – فى متشابهة القرآن – ص ٢٦١.

فقدم (الذين كفروا) على (من قومه) في الآية الأولى، وأخر في الثانية، وذلك لاختلاف المقام وتباين السياق بينهمافففي الأولى صرح بذكر الرسول فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ﴾[المؤمنون ٢٣] وكرر ذكر القوم مرتين وأضاف "(قوم) إلى ضمير (نوح) لأنه أرسل إليهم فلهم مزيد اختصاص به، ولأنه واحد منهم وهم بين أبناء له وأنسباء، فإضافتهم إلى ضميره تعريف لهم إذا لم يكن لهم اسم خاص من أسماء الأمم الواقعة من بعد"[(١)].

بينما تقدم ذكر (قومه) على (الذين كفروا) في الثانية لأنها سبقت بذكر الرسول المرسل منكرًا فقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾[المؤمنون ٣٢] وهم قوم هود، فاحتيج إلى تقديم قومه الذين لم يذكروا صراحة ولو مرة واحدة في الآية (٣٢).

وربما كان تقديم ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لاختصاص القول بهم وشموله لهم وبيان أثر قولهم في قومه وفي الناس كافة، إذا لم يؤمن معه إلا قليل كما جاء صريحًا في القرآن ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[هود ٤٠] وجاء تقديم ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ﴾ لاختصاص القوم – قوم عاد – وبيان أثرهم في الناس. والله تعالىٰ أعلم.

---

(١) ابن عاشور – التحرير والتنوير – الدار التونسية للنشر – الجماهيرية العربية الليبية – ٢٩/ ١٨٧.

الفَصْلُ الثالث

الإعجاز البلاغى للفعل المبني للمجهول

الفَصْلُ الثَّالِثُ: الإعْجَازُ البَلاَغِيُّ لِلفِعْلِ المَبْنِيِّ لِلمَجْهُولِ

البِنَاءُ لِلْمَجْهُولِ وَالتَّصْوِيرِ

يقصد بالتصوير هنا ما يقوم به الفعل المبنى للمجهول من تصوير لأحداث المشهد الغيبي الذى غابت دقائقه عن المتلقى أو خفى عن ذهنه وخياله.

أولاً: المشاهد الغيبية

تعمل الأساليب القرآنية في المشاهد الغيبية عملا حيا يساعد نفس الملتقي علي تلقي كينونة المشهد بمعناه العميق؛ ليتدارك خياله ما قصرت عنه حواسه المادية، فتتغاير الأفعال والجمل بتغاير الأحداث والوقائع والأشخاص، فنجد فعلا بعينه يدور في المواضع الكثيرة مبينا للمعلوم ليقرر الحقيقة دامغة واقعة شاخصة للعيان، لا جدال فيها ولا مراء، وذلك كالفعل (رزق) مثلا الذي جاء معلوما في كل المواضع القرآنية إلا أربعة مواضع، كقوله تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ منَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادقينَ﴾ [النمل ٦٤].

وكقوله تعالىٰ: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفقُونَ﴾ [السجدة ١٦].

وقد تغاير هذا الفعل من المعلوم إلي البناء للمفعول؛ لحكمة يقتضيها السياق كما في قوله تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا رُزقُوا منْهَا منْ ثَمَرَةٍ رزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذي رُزقْنَا منْ قَبْلُ وَأُتُوا به﴾ [البقرة٢٥]

(رُزِقُوا) هنا بمعنى: أطعموا، (قَالُوا هَـذَا الَّـذِي رُزِقْنَـا مِـنْ قَبْـلُ) أي: أتـاهم هـذا

الطعام من قبل.

وهذه اللوحة من مشاهد الجنة الغيبية، فلا تعلم حقيقة الرزق فيها، ولا حقيقة الإتيان (وَأُتُوا)، فيضم المشهد حدث الفعل من الرزق مع المتمتع به، وكذا الإتيان مع المنتفعين به، وفي بناء الفعل للمفعول (رُزِقُوا - رِزْقاً - وَأُتُوا) دلائل أخرى وهي أن هذا الرزق يأتيهم دون جهد أوعناء أوبحث أوشقاء، وقد شاع في جو الآية جرس موسيقي أحدث إيقاعا متناغما من تكرار الرزق: رُزِقُوا - رِزْقاً - رُزِقْنَا، الوارد في سياق النكرة المفيدة للعموم (من ثمرة رزقا).

ومثله ما جاء في سياق مشهد الآخرة الغيبي وهو من مشاهد الجنة في قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر٤٠].

وقد جاء فعل الرزق مبنيا لمفعوله في موضع ثالث من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران١٦٩].

فهي حياة خاصة مغايرة للحياة المعهودة، ولذلك خصصها بقوله (عِنْدَ رَبِّهِمْ) وبني الفعل (يُرْزَقُون) للمفعول؛ إشارة لاختلاف هذه الحياة، وأنها من نوع خاص يجري الرزق عليهم ويأتي إليهم، كما يجري الرزق لأهل الدنيا، فهي إذا قد وردت في سياق المشهد الغيبي من حياة الدار الآخرة.

وقد جاء فعل الرزق مبينا لمفعوله في موضع رابع من قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾[يوسف٣٧].

طعام ما على العموم والشمول كما دلت النكرة في سياق النفي، وقد زاد ذلك في

إبراز إعجاز الموقف الغيبي الذي تطلب بناء الفعل (تُرْزَقَانِهِ) للمفعول، وذلك أن يوسف عليه السلام " وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء، وهوالإخبار بالغيب. وأنه ينبئهما - وهما الفتيان اللذان دخلا معه السجن - بما يحمل إليهما من الطعام في السجن قبل أن يأتيهما ويصفه لهما، ويقول: اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت، فيجدانه كما أخبرهما".[1] وفي سياق الحديث عن الجنة والنار وهي من مشاهد القيامة الغيبية الخفية، مجهولة العالم أوالواقع الملموس؛ جاء التعبير عنها بالفعل المبني لمفعوله، وذلك معرض ذكر الجنة مقابل ذكر النار، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة٢٤].

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران ١٣١].

وقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران١٣٣].

وقوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد٢١].

فلفظ الإعداد هنا بمعناه اللغوي الموحي بالمتانة والإتقان، وبما لحق اللفظ من تضعيف وبناء للمفعول، يعمل علي إحضار المشهد " ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أوالحركة المتجددة، فإذا المعني الذهني هيئة أوحركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة

---

(١) الدامغاني - الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز - ط- دار الكتب العلمية - بيروت - ٢٠٠٣ - ص ٢٦.

البشرية مجسمة مرئية ".[١]

وقد جاء الفعل نفسه مبينا للمعلوم عند الحديث عن اسم أوصفة أومعنى من معاني الجنة والنار أو كالأجر والعذاب والسعير وجهنم، كقوله تعالى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة٨٩]، فهي جنان ودرجات داخل الجنة التي أعلاها الفردوس الأعلى.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب٣٥].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ [الأحزاب٦٤].

فالسعير اسم من أسماء النار ومن دركاتها

﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح٦] وجهنم –عياذا بالله – من دركات النار، ومنها الدرك الأسفل، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء١٤٥].

فيتضح مما سبق أن لفظ (أَعَدَّ) بصيغة البناء للمفعول لم يرد إلا في معرض الحديث عن الجنة والنار باسمه العام الذي يمثل الإطار العام للجنة والنار.

وفي سياق الحديث عن الجنة جاء الفعل (يُطَافُ) مبنيا للمجهول مرة، ومبنيا للمعلوم مرة أخرى، يقول تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا﴾

---

(١) الزمخشري – الكشاف – ط٣ – دار الريان للتراث – القاهرة – ١٩٨٧ – ٢/٤٧٠.

[الإنسان١٥]، ويقول جل شأنه: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا﴾ [الإنسان١٩].

فهذه المغايرة من المجهول إلي المعلوم لحكمة اقتضاها السياق، وتدخلت الصيغة اللغوية لتصوير المشهد، فالطواف في كلا المشهدين خاص بأهل النعيم من الجنة (عَلَيْهِمْ) ولكن " ذكر الأول بلفظ مجهول لأن المقصود ما يطاف به لا الطائفون، ولهذا قال: ﴿بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ﴾ ثم ذكر الطائفين فقال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾. (١)

وفي مجال العلم جاء الفعل (علم) في القرآن الكريم معلوما؛ ليظهر حقيقة الفاعل في وضوح وجلاء، ويتسلط الضوء عليه ويبرز الاهتمام به، كقوله تعالىٰ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد١٧]، فالبشر (واوالجماعة) في (اعْلَمُوا) هم المعنيون بالعلم؛ ليصل بهم إلي الإيمان والتوحيد.

وقوله جل شأنه: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف٢١]، فيظهر فاعل العلم – سبحانه وتعالىٰ – ليتحقق جانب النبوة عند يوسف عليه السلام وبعثته لقومه.

وقد جاء الفعل (علم) مبينا لمفعوله في أربعة مواضع لحكمة اقتضاها السياق في تقريب المعني الخفي وحقيقته التي توارت خلف الستار، يقول تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ

(١) سيد قطب – التصوير الفني في القرآن– ط ١٤ – دار الشروق – القاهرة – ١٩٩٣ – ص ٣٦.

حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[الأنعام٩١] فالأفعال الواردة في هذه الآية كلها جاءت مبنية للمعلوم (وَمَا قَدَرُوا - مَا أَنْزَلَ - أَنْزَلَ - تَجْعَلُونَهُ - تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ)، وجاء هذا الفعل (عُلِّمْتُمْ) وحيدًا فريدًا مبينًا لمفعوله في وسط هذا المشهد المعلوم، ولعل ذلك يشير إلي حكمة بليغة وهي لفت الذهن إلي مصدر هذا العلم، وهومصدر غيبي خفي عن الأبصار وماديات الحياة الدنيا المتعارف عليها، فهومن عند الله تعالى، " والخطاب لليهود، أي علمتم علي لسان محمد " ﷺ " مما أوحي إليه ما لم تعلموا أنتم، وأنتم حملة التوراة، ولم تعلمه آباؤكم الأقدمون الذين كانوا أعلم منكم، (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) (النمل:٧٦)، وقيل الخطاب لمن آمن من قريش ".[1]

وفي مجال هذا العلم الخفي، غير المتاح لكل أحد، وإنما هوعلم غيبي يصدر عن المولي ﷻ، جاء فعل العلم مبينا لمفعوله في موضع ثان من قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾ [الكهف٦٦]، وهنا يطلب نبي الله موسي عليه السلام من هذا العبد الصالح أن يتبعه ليتعلم من علمه الذي علمه إياه، وهذا توجيه من الله - تعالى- لموسى أن يفعل ذلك ويتبع هذا العبد الصالح، بعد أن سئل موسي عليه السلام، كما أوردت كتب التفاسير، هل في الأرض من هو أعلم منك؟ فقال: لا.

واستعملت (عَلَى) في قوله تعالىٰ: ﴿عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾ استعمال

---

(١) الكرماني - البرهان في متشابه القرآن - تحقيق: احمد خلف الله - ط٢ - دار الوفاء - المنصورة - ١٩٩٨ - ص ٣١٩.

أدوات الشرط، فكان معني الكلام معها: هل أتبعك بشرط أن تعلمني؛ فإن لم تعلمني لا أتبعك، ووجه دلالة (على) هنا على الشرط بعض الأئمة بأن معناها لغة هوالإلزام، ومعني الشرط الإلزام فبين المعنيين تناسب من هذه الجهة، وهي دلالة (عَلَى) على الشرط حقيقة أومجاز؟ خلاف غير متكافئ والأصح أنه مجاز "[١].

والموضع الثالث في قوله تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ [النمل١٦].

لم يقل (علمنا) أو(أتانا كل شيء)، وإنما جاءت الصيغتان بالبناء للمفعول، وحذف لفظ الفاعل للعلم به، كما هو متبادر في مثل هذه السياقات، فالذي علمه هذا العلم الغيبي الخفي، وآتاه من كل شيء هو الله تعالىٰ – فهذا من " التمكين العظيم، حتى إنه سخر له الإنس والجن والطير، وكان يعرف لغة الطير والحيوان – أيضا –، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر – فيما علمناه – مما أخبر الله به ورسوله "[٢].

وهذه المواقف التعجيزية التي تظهر فيها الخصوصية للموقف والمشهد وصاحبه، تستلزم سياقا خاصا ونسيجا لغويا له دلالته، ولذلك جاءت تتمة المشهد بفعلين مبنيين للمفعول: يقول تعالى: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل١٧]، فهذا التسخير في (حُشِرَ – يُوزَعُونَ) لا ينبغي لأحد من البشر سوى نبيّ الله سليمان عليه السلام وهوتسخير يأتيه من قبل الله عز وجل لا طاقة له به، فهوقوة غيبية مصدرها المباشر من الله تعالى.

---

(١) الزمخشري – الكشاف – ١٩٨٧ – ٢/٤٤.

(٢) د/ عبد العظيم المطعني – التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم – الطبعة الأولي – مكتبة وهبة – القاهرة – ١٩٩٩ – ٢/٢٥٦.

ويمثل الموضع الرابع للفعل المبني للمفعول مشهدا غيبيا من نوع آخر، إنه يمثل القيمة الأخلاقية التي تمثل الصفات والطهر في النفس والمجتمع المحيط.

يقول تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور٣١].

فهذه الآية الكريمة حملت العديد من الأفعال، وهي كلها مبنية للمعلوم إلا هذا الموضع (لِيُعْلَمَ)، والشيء الخفي أو الواجب هو إخفاؤه هو زينة المرأة التي يجب عليها أن تخفيها إلا ما جاء به الاستثناء في الآية الكريمة لاثني عشر شخصًا.

ولعل السر في كون هذا الوضع الوحيد في الآية كلها فعلا مبنيا للمجهول، هوتعلقه بالسماع ومخاطبة حاسة الأذن، فيهتز القلب تطلعا لهذه الزينة الصادرة عن ضرب المرأة للأرض برجلها وما تلبسه من خلخال أوما يقوم بمهمته ودوره بتطور الأزمان والأحوال، يؤيد ذلك ما قاله الزجاج: " سماع هذه الزينة أشد تحريكا للشهوة من إبدائها ".[1]

وقد جاء الفعل مبينا لمفعوله لتصوير المشهد بوقائعه غير المرئية وإبراز عنصر الخفاء وأثره الانفعالي على من واجهه، يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ

(١) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – اختصاروتحقيق احمد شاكر وانور الباز – الطبعة الأولي – دار الوفاء – المنصورة – ٢٠٠٣ – ٦٥٣/٢.

حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل٨ -١٠]

وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ [القصص:٣٠-٣١].

وباستقراء هذه الأفعال التي تأتي مبنية للمجهول نجدها تأتي – أيضا – في مشاهد القيامة، وهما من مشاهد الغيب البعيدة عن الملموس المادي، فهو يمثل المشهد بخفاياه ودقائقه، ويعمل علي إبراز فخامته أورهبته، يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [النحل١١١]

فيستحضر الذهن مشهد الوفاء (توفي) ولم تأت تسمية الفاعل للعلم به، ولينصَبَّ الاهتمام علي مشهد وفاء الأعمال بهيبته ورهبته، وقد زاد من رهبة المشهد مجئ صدر الآية الكريمة بكلمة (يَوْمَ) نكرة؛ لتؤدي دورها الحيوي في إبراز الموقف الخفي عن الأبصار، لتظهر الأشخاص في مشهد جلي، لا يهتم كل شخص إلا بنفسه، " فكل نفس لا يشغلها إلا نفسها، وقد جاءت منفردة، وهي في وسط هذا الخضم من المحشورين لا تحس بشيء إلا بذاتها، فهي تجادل عن نفسها، تدافع أو تحاول الدفاع، وتروم الخلاص، ولا مجال هناك للخلاص ".[1]

وفي مشهد آخر يتم تصوير دهس المعرضين المنكرين، ويظهر مدي ندمهم، كما لو

(١) القرطبي – الجامع لأحكام القرآن – الطبعة الأولي – دار الفكر – بيروت – ١٩٩٩ – المجلد السادس – ١٨١/١٢.

كان دهسوا وسووا بالأرض لكان أهون عليهم من هذا الإعراض، يقول تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً﴾ [النساء٤١ - ٤٢].

فتصدير المشهد بالاستفهام عن الحال (كَيْفَ) فيه إبراز لجو الفزع والرعب، وإيحاء بنوعية العذاب الهائل الذي لا يوصف، ولذلك جاء التعبير بالفعل (يَوَدُّ) ليكشف عن مكنون القلب واعتمال الحالة النفسية فيما لو كانت الأرض قد سويت لهم، وصاروا جزءًا منها، فيبدو المشهد بحركة المجيء (جِئْنَا مِنْ كُلِّ، جِئْنَا بِكَ) وإبراز المعاناة النفسية التي تصير فيها تسوية الأرض بهم إلي حد الأمنية الغالية والمودة الغائبة، فيتمنون الدهس والتسوية (تُسَوَّى) بالبناء للمجهول لدلالة رغبتهم في دهسهم وتسويتهم بالأرض من أية جهة وبأية طريقة؟! " منطقة الخاص وطريقته المميزة في التعبير عن موضوعاته، فقد التفت القرآن عن مخاطبة الذهن البشري إلي مخاطبة الحس والوجدان، وذلك بمنطق التصوير لا التقرير، ولمنطق التصوير وسيلته التي ميزت أسلوب تناول القرآن لمختلف الموضوعات الإلهية التشريعية والعقائدية والتعبير عنها ".[1]

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يأتي الفعل الذي لم يسم فاعله؛ ليؤدي دورا بليغا في سياق المشهد الغيبي من ساحة العرض والحساب.. يقول تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً﴾ [طه١٠٢- ١٠٣].

فالغرض يتعلق بعلاقة الحدث (يُنْفَخُ) ووقعه وأثره في الصور لتقع الأهوال، ولا

(١) سيد قطب - مشاهد القيامة في القرآن - ط ١٢ - دار الشروق - القاهرة - ١٩٩٣ - ص ١٩٢.

مجال لظهور الفاعل في المشهد حتى لا يشغل حيزا أو مساحة يحتاجها المشهد بجزئياته وخطوطه، و(يَوْمَ) نكرة للتهويل، وهو " منصوب بإضمار اذكر، ويجوز أن يكون ظرف المضمر حذف للإيذان بضيق العبارة عن حضره وبيانه أو بدلا من (يوم القيامة) أو بيانا له أو ظرفا ل(يتخافتون) وقرأ أبوعمرو وابن محيصن (ننفخ) بنون العظمة على إسناد الفعل إلى الأمر به وهوالله – سبحانه وتعالىٰ – تعظيما للنفخ، لأن ما يصدر من العظيم عظيم "[1]

ويقول تعالىٰ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون١٠١].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر٦٨]

وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً﴾ [النبا١٨].

فهذه أربعة مواضع من مجموع اثني عشر موضعا للفعل (نُفِخَ - يُنْفَخُ) هي كل ما جاء في القرآن الكريم في مشاهد القيامة الغيبية، وقد غاب لفظ الفاعل لعدم تعلق الغرض به مثل إبراز الفاعل؛ ليتسلط الضوء على الناس وهم يأتون أفواجا، ولكن في (نُفِخَ) انْصَبَّ الاهتمام على إبراز الحدث بهوله وشدة صوته التي تكاد تسمعها الآذان، ومن الثابت علميا أن الصوت إذا علا وارتفع كان سببا في إصابة الإنسان بالتوتر العصبي وسرعة الغضب والانفعال، فإذا زاد عن حده إلى درجة لم يعد يتحملها الإنسان، أصيب بالصمم، فإذا ظل في الارتفاع خرَّ ميتًا! فالسمع له حدود "

---

(١) د/عيد يونس – التصوير الجمالي في القرآن الكريم – الطبعة الأولي – عالم الكتب – القاهرة – ٢٠٠٦ – ص١٢٩ - ١٣٠.

فلا تدرك الأذن من الأصوات إلا ما كانت ذبذباته في المدى المسمى بالموجات الصوتية، بينما لا تشعر بموجات اللاسلكي ولا الموجات فوق الصوتية، وحساسية الأذن أيضا محدودة لشدة الصوت، فلا تميز الأصوات لوقلت شدتها عن (١٠)١٢٠ وات/ م٢ (بداية مقياس الديسيبل)، ولا تتحمل الأصوات التي تزيد شدتها عن ٢٠٠ ديسيبل، ولو زادت لصعق الإنسان ومات على الفور ؟ "[١]

ومن إعجاز القرآن الكريم إثبات تلك الحقيقة قرآنا يتلى منذ أكثر من أربعة عشر قرنا، بل تنقلب تلك الصاعقة المميتة إلى ضدها، فتتحول تلك النفخة التي أفنت الخلائق، إلي نفخة بعث وحياة!.

قال تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر٦٨]، (ثُمَّ) أدت إلى معنى التراخي الزمني بين النفختين، وقوله تعالىٰ: (أُخْرَى) دل على أن النفخ في الصور نفختان، ويحدث التحول السريع المفاجئ عقب إرسال النفخ إلى الموتى؛ إلى القيام والنظر كما دلت (إِذَا) الفجائية.

أما مشاهد المادة أو الواقع الملموس أو المحسوس، فإن الفعل (نُفِخَ) لم يأت إلا مبنيا للمعلوم، مثل قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة٩].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ

---

(١) الألوسي – روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني – دار التراث – القاهرة – ١٦/٢٦٠..

بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم١٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿رَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران٤٩].

وقوله تعالىٰ: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾ [الكهف٩٦].

فالنفخ من روح الله لخلق آدم أو عيسي عليه السلام واقع بشري ملموس، تلمسه البشرية منذ آدم عليه السلام إلي يوم القيامة؛ دون أن يدري الإنسان لها سرًّا غير أن فاعلها – جل شأنه – متعين بالقدرة والوحدانية، ولذلك جاءت الجملة اللغوية ناصعة التحديد في إبراز الفاعل، وفي آية آل عمران والكهف نجد مشهد عيسي بن مريم – عليه السلام – وذي القرنين يفتقران إلى وجود الفاعل وإبرازه محددا؛ لتجنب اللبس والغموض الذي يؤدي إلى فساد المعنى.

وقوله تعالىٰ في مشهد القيامة: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ [الزلزلة ١-٦].

فالزلزلة مشهد خفي غيبي، وقد جاءت في سياق بث الفزع والرجفة النفسية والتصدع القلبي، ولم يأت في هذه السورة الكريمة فعل مبني للمجهول إلا (زُلْزِلَتِ – لِيُرَوْا) فهذا الانقلاب الكوني يمثل الوجه الآخر للمشهد وهو مجسد في رؤية الأعمال

التي من أجلها انقلب هذا الكون واختل نظامه، وإذا كانت (إذا) للوقت، ومع ذلك قد صدرت بها السورة، فهي بمثابة الإجابة عن سؤال: " متى الساعة فقال: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ كأنه تعالىٰ قال: لا سبيل إلى تعيينه بحسب وقته ولكن أعينه بحسب علاماته، إن الله تعالىٰ أراد أن يخبر المكلف أن الأرض تحدث وتشهد يوم القيامة مع أنها في هذه الساعة جماد، فكأنه قيل: متى يكون ذلك؟ فقال: (إذا زلزلت الأرض). (١)

"وفي مشهد من مشاهد القيامة في سورة التكوير "الذي قال فيها رسول الله ﷺ: من سره أن ينظر إلي يوم قيامة كأنه رأي عين فليقرأ: "إذا الشمس كورت وإذا السماء انفطرت وإذا السماء انشقت" (٢) . قال تعالىٰ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير ١ - ١٤].

فالمشهد هنا زاخر بالحركة العنيفة المنفلتة من سياقها ونظامها التي كانت تسير في فلكه منذ أمد بعيد، إنه " مشهد انقلاب تام لكل معهود، وثورة شاملة لكل موجود تشترك في الانقلاب وثورة الأجرام السماوية والأرضية، والوحوش النافرة، والدواجن الأليفة، أو نفوس البشر، وأوضاع الأمور، ويبدأ المشهد بحركة جائحة،

---

(١) د/ احمد مصطفي متولي – الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية – الطبعة الأولي – دار ابن الجوزي – القاهرة – ٢٠٠٥ – ص ٢٩٣.

(٢) الفخر الرازي – التفسير الكبير – الطبعة الثانية – دار إحياء التراث العربي – بيروت – ١٩٩٧ – ٢٣٥/١١

وثورة ثائرة، وكأنما انطلقت من عقالها المردة المدمرة، فراحت تقلب كل شيء، وتنشر كل شيء، تهييج الساكن، وترويع الآمن، والموسيقى المصاحبة للمشهد سريعة الحركة، لاهثة الإيقاع، تشترك بإيقاعها السريع في تصوير المشهد وتمثيله في الإحساس "[١].

وقد مثّل الفعل الذي لم يسم فاعله دورا بارزا في تصوير الحركة المجهولة في طي الزمان، فالمشهد بدأ بفك الكون وتدميره من أعلى إلى أسفل، بالكائنات غير العاقلة: الشمس، النجوم، الجبال، العشار، الوحوش، البحار، ثم الكائنات العاقلة من النفوس والمؤودة، ثم رجوعها مره أخرى إلى الصحف التي تنشر والسماء التي تكشط، وذلك من الكائنات غير العاقلة؛ ليعود المشهد إلى مظاهره أو كائناته العليا كما بدأ، وكأنه مشهد يكور في دائرة انقلاب وانفلات للنظام في سرعة فجائية صارمة مثلها البدء: بـ (إذَا) للزمان المفاجئ، ثم تكرارها مع كل حدث مدمر، ومن الملاحظ أن كلمة (البحار) بالجمع لم تستخدم في القرآن الكريم إلا للحديث عن يوم القيامة، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير٦]. ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار٣].

ونلاحظ تسلسل الآيتين في القرآن يتناسب مع المفهوم العلمي:

فأولا: يكون الاشتعال ثم الانفجار وليس العكس، فجاء تسلسل الآيتين أولا (سُجِّرَتْ) وثانيا (فُجِّرَتْ)، وهذا مطابق للحقائق العلمية الحديثة.[٢]

وإذا نظرنا إلي هذا المشهد بكائناته وجزئياته، نجد أن التعبير بالفعل الذي لم يسم فاعله هو الأسلوب السائر في كل المشهد عدا جزئية واحدة فقط هي صورة انصباب النجوم وتنافرها (وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَت) وقد جاء التعبير عن هذا المشهد بالفعل المبني

---

(١) سيد قطب – مشاهد القيامة في القرآن - ص ٦٧.

(٢) عبد الدائم الكحيل - التناسق البياني لكلمات القرآن الكريم – موسوعة الإعجاز في القرآن والسنة .www.55a.net

للمعلوم! ولعل السر في ذلك أن النجوم في مراحل انكدارها تمر بمراحل من الميلاد والشباب والشيخوخة قبل أن تنفجر أو تتكدس على ذاتها فتطمس طمسا كاملا: النجوم الابتدائية ثم العادية ثم العماليق الحمر ثم السدم الكوكبية ثم الأقزام البيض ثم فوق مستعر من الطراز الأول ثم الثاني ثم النجوم النيترونية النابضة وغير النابضة والثقوب السوداء والنجوم المفردة والمزدوجة والمتعددة، والنجوم أفران كونية يتم في داخلها سلاسل من التفاعلات النووية التي تعرف باسم عملية الاندماج النووي.[١]

فيتضح مما سبق أن النجوم تنفرد بخاصية هائلة من طبيعة التكوين والتكون والانتشار والانشطار والانفجار، فلها طبيعتها الكونية التي لا تماثلها طبيعة كونية أخرى فيما عرف من الوجود، وقد أثبت العلم حديثا أن النجوم علي انتشارها الهائل في السماء تشتمل علي درجة حرارة عالية بدرجة مذهلة، وتنقسم تبعا لذلك إلى " نجوم حمراء (أقلها حرارة ٣٢٠٠ درجة مطلقة) – نجوم برتقالية – نجوم صفراء – نجوم بيضاء مائلة إلي الزرقة – نجوم زرقاء (أشدها حرارة ٣٠٠ ألف درجة مطلقة) – الشمس من النجوم الصفراء متوسطة الحرارة، إذ تبلغ درجة حرارة سطحها حوالي ستة آلاف درجة مطلقة . "[٢]

ثانيا: المشاهد الخفية

يجسد الفعل الذي لم يسم فاعله أجزاء المشهد الذي نري فيه موسي عليه السلام يفاجأ بالنداء الذي يأتيه من حيث لا يدري ولا يحتسب، فنراه وقد اعترته الدهشة وهول المفاجأة وأخذ يتلفت هنا وهناك؛ ليقف على حقيقة الصوت يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا

---

(١) الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية ص ١٠٦.

(٢) الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية ص ١٠٦.

نُودِيَ يَا مُوسَى ﴾ [طه١١]

﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل٨]

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [القصص٣٠]

هذا ولم يفرق الكرمانى(١) بين [أتى- جاء]، وقال: إنهما بمعنى واحد.. وفرق الراغب الأصفهانى(٢) بين [أتى- جاء]، فقال: الإتيان: مجئ بسهولة، ويقال للمجئ بالذات وبالأمر وبالتدبير، ويقال فى الخير وفى الشر وفى الأعيان والأعراض، نحو قوله تعالى: ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل ١].

أما المجئ فهو أعم وهو يقال اعتبارًا بالحصول، ويقال جاء فى الأعيان والمعانى، نحو قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [القصص ٢٠]

البِنَاءُ لِلْمَجْهُولِ وَإِفَادَةِ العُمُومِ

يتسم الأسلوب القرآني الكريم – فيما يتسم – بالمرونة والاتساق مع المشاهد واللوحات النابضة بحياة الموقف، حتى إننا لنجد الكلمة بذاتها تأتي في عدة سياقات ولها دلالة مختلفة في كل سياق بحسب ما يقتضيه المعني ويتطلبه المقام، وكلما ازداد

---

(١) الكرمانى - البرهان فى متشابه القرآن - ص ٢٣٦.

(٢) الراغب الأصفهانى - المفردات فى غريب القرآن - تحقيق وائل عبد الرحمن - المكتبة التوفيقية - القاهرة - ٢٠٠٣ - ص[١٨، ١٩].

الزمان عمرا، وبلغ الدهر شأوا وغاية انبثقت أساليب القرآن وكلماته لتشع بضوئها ونورها؛ لتنطلق كائنات الوجود من جديد بمراميه و دلالته، " وما أشبه القرآن الكريم في تركيب إعجازه، وإعجاز تركيبه بصورة كلامية من نظام هذا الكون الذي اكتنفه العلماء من كل جهة، وتعاوروه من كل ناحية، وأخلقوا جوانبه بحثا وتفتيشا، ثم هو بعد لا يزال عندهم على كل ذلك خلقا جديدا، ومراما بعيدا، وصعبا شديدا "[1].

والفعل الذي لم يسم فاعله قد جاء في مواضع كثيرة من القرآن ليدل علي دلالة معينة في كل سياق حسب اقتضاء المعنى الذي ما كان ليبرز في جلاء أو رسم واضح إذا جاء الفعل مبنيا للمعلوم، ومن تلك السياقات المفيدة للعموم ما قام فيه ذلك الفعل الذي لم يسم فاعله بدور بارز في إفادة ذلك المعنى، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ

---

(١) مصطفي صادق الرافعي – إعجاز القران والبلاغة النبوية – ط٤ – مطبعة الاستقامة بالقاهرة (١٩٤٥) – ص ١٥٧.

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة٢٨٢]

نهي عن التقاعس عن الدعوة وتلبيتها للإدلاء بالشهادة أيا كان الداعي إليها والحق المطلوب إثباته سواء كان الداعي من القريب أوالصديق أو غيرهما ممن لا تربطه بالشهيد رابطة ما، ويقول تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور٥١]، فالدعوة إلي الله ورسوله عامة، لا تختص بشخص دون شخص، ولا زمان أو مكان دون غيرهما، وإنما يجب الإذعان لله ورسوله وسرعة التلبية، وتصدير الآية بأسلوب القصر (إنما) والفعل الماضي (كان) فيه مدح للمؤمنين وإثارة لحمية الإيمان وبعث حفيظته في نفوسهم.

ويقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف٧]، أي: لا أحد أظلم ممن يفتري الكذب علي الله، ويجعل له أندادا وشركاء، وهو يدعى التوحيد والإخلاص[1] أيا كان الداعي، وأينما كان؛ ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة٩] فهنا خصوصية المنادي عليهم، وهم المؤمنون، وعمومية المنادي أيا كان المنادي، وخصوصية النداء المقيدة ب: (الصلاة)، فهو نداء محصور فيها، والفعل (نودي) مقيدة بالشرط (إذا)، وهي أداة نقلت الفعل من الماضي إلي المستقبل المطلق المقطوع بحدوثه كما دلت (إذا)، ولهذا جاء التعبير بها دون (أن) الشرطية التي لا تفيد القطع بوقوع الحدث.

---

(١) ابن كثير – تفسير القران العظيم – ٤٥١/٣.

هذا ولوُرُودِ الدعاء والنداء خاصية في القرآن الكريم، فالدعاء في الآيات السابقة بمعنى الدعوة إلي خير كالإدلاء بشهادة أو الدعوة إلى الله ﷻ والنداء يشتمل على البهجة والسرور، كما " أن للنداء في لغة القران خاصية؛ رشحته لأن يكون الله فاعلا له – بلا حرج – كما رشحته ليكون (عنوانا) على طلب الإقبال على الصلاة (الآذان)، وأن يكون (عنوانا) على طلب الإقبال على الإيمان.

في كل من الدعاء والنداء خير، بيد أن الخير في النداء أخلص وأصغى، وأظهر تفاؤلا، وأنقى معنى " [١] .

وفي مادة (ظلم) جاء الفعل المبني لمفعوله بصيغه الماضي والمضارع؛ لإفادة العموم –أيضا– يقول تعالىٰ: ﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً﴾ [النساء١٤٨].

فإطلاق الظلم دون تحديد يعني عمومه لأنواع الظلم، وهذا الاستثناء في الآية الكريمة له دلالة خاصة على إظهار بغض الله – تعالىٰ – للظلم وصاحبه، لدرجة أنه أباح الجهر بالسوء للقضاء على الظلم، وقوله تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء٤٧].

(فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً) فجو الآية كلها يوحي بالعموم والشمول، عموم النفي للظلم، أوعموم الظلم المنفي الشامل لكل نفس من النفوس، في شيء ما من الأشياء، والتعبير بالجمع (الْمَوَازِينَ) والمصدر (الْقِسْطَ) للدلالة على تناهي العدل المطلق.

---

(١) دكتور عبد العظيم المطعني – دراسات جديدة في إعجاز القران – الطبعة الأولي– مكتبه وهبة – القاهرة – ١٩٩٦ – ص ٢٦٨.

وقوله تعالى: ﴿أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر٦٩] فهذا المشهد يزخر بالحركة المهيبة أو يبعث في النفس جوًّا من الجلال والإشراق، إشراق الحق والعدل.

فالأرض كلها تشرق فتظهر مضيئة بنور ربها وخالقها أي: بعدل ربها، أوبحكم ربها، والمعنى: أن الأرض أضاءت وأنارت بما أقامه الله من العدل بين أهلها، وقيل: أن الله يخلق نورا يوم القيامة يلبسه وجه الأرض فتشرق به غير نور الشمس والقمر، ولا مانع من الحمل على المعنى الحقيقي[١]، ولإبراز صورة الأرض رأي عين، جاء لفظ الإشراق في وعاء الفعل المبني للمعلوم، ثم تغايرت الأفعال وجاءت غير مسماة الفاعل (ووضع – وجئ – وقضي – لا يظلمون) فينصرف الذهن وتشخص الأبصار إلي أجزاء المشهد، فيتسلط الضوء علي وضع الكتاب وهو كتاب الأعمال – وتمثل صورة النبيين والشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر[٢]، أو الذين يشهدون على الأمم من أمة النبي محمد ﷺ[٣]، نهاية المطاف وخاتمة مشهد أهل الجزاء والإحسان لهذه الفئة؛ ليتسلط الضوء علي ذلك القضاء أو الوفاء، ولذلك بني الفعل لما لم يسم فاعله (وقضى) لينفي عنهم الظلم علي إطلاقه أو في جنس من أجناسه وأشكاله.

وفي مادة (عفا) ورد هذا الفعل كثيرا في القرآن الكريم بصيغة الماضي والمضارع المجرد والمسند للضمير، ولكنه لم يرد بصيغة المبني للمجهول إلا في موضع واحد فقط،

---

(١) الشوكاني – فتح القدير – تحقيق دكتور عبد الرحمن عميرة – ط ٢ – دار الوفاء – المنصورة – ١٩٩٧ – ٦٢٥/٤.

(٢) ابن كثير – تفسير القران العظيم – ١٧٧/٣.

(٣) فتح القدير ٦٢٥/٤.

وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة١٧٨] فليس المقصود أو الغرض ذكر فاعل العفو، بل هو على إطلاقه، أيا كان، والعفو: القصد لتناول الشيء، يقال عفاه واعتفاه، أي: قصده متناولا ما عنده، و(عفوت عنه) قصدت إزالة ذنبه صارفا عنه، فالمفعول في الحقيقة متروك، و(عن) متعلق بمضمر، فالعفو هو التجافي عن الذنب[1].

ومن ذلك العموم قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال٢] فليس الغرض متعلقا بمن ذكر الله أوالشخص الذي تلا آيات الله بل هوعلي إطلاقه أيا كان ذلك الشخص وإنما يتسلط الضوء علي الذكر نفسه وعلي التلاوة نفسها وما تحدثه من خشية وإيمان.

البِنَاءُ لِلْمَجْهُولِ فِي مَقَامَيِ الإِنْكَارِ وَالإِيمَانِ

تختلف الكلمات المختارة وتتغير حسب مقامات الكلام وسياقاته، وما بالنا إذا كانت تلك السياقات هي سياقات القرآن الكريم التي تحمل المشاهد والدلالات، فيلقي القارئ أوالسامع آيات الله – تعالىٰ – تتلى عليه بمعنى تألفه نفسه، وكلمات يعرفها ويرددها في قوله، ولكن تبقى الروح التي تسري في الجسد من أجل أن تهبه الحياة والحركة الباعثة.

---

(١) الراغب الاصفهاني – مفردات في غريب القران – تحقيق وائل عبد الرحمن – المكتبة التوفيقيه – القاهرة – ٢٠٠٣ – ص ٣٤٢.

وعندما حدثنا الله ﷻ عن هؤلاء المعرضين والمنكرين خاطبنا بكلمات لها جرسها وإيقاعها ونغمها اللائق في النفس، فجاء الفعل المبني للمجهول يمثل حالة الإنكار وعدم الاعتراف التي يعيشها هؤلاء الكافرون وينغمسون بها في عالم الطي والكتمان، يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة١٦]

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ﴾ [الشعراء١٤٦]

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة٣٦]

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت٢]

ورد الفعل (ترك) في القرآن الكريم كثيرا، ولكنه جاء مبينا للمعلوم في الماضي والمضارع، مسندا للضمير أو مجردا، أو باسم الفاعل للمفرد أو الجمع، ولكنه ما جاء بصيغة الفعل الذي لم يسم فاعله إلا في هذه الآيات السابقة، وكلها بصيغه المضارع، التي جاءت كلها في سياق الاستفهام المفيد للإنكار والتوبيخ، فهو إنكار وعتاب للمؤمنين – كما في آية التوبة – الذين توهموا أن يتركهم الله – تعالى – دون اختبار؛ حتى يتبين الخلص منهم،" وهم الذين جاهدوا في سبيل الله لوجه الله، ولم يتخذوا وليجة – أي بطانة – يضادون الرسول والمؤمنين رضوان الله عليهم، و(لما) معناها التوقع، وقد دلت على أن تبين ذلك، وإيضاحه متوقع كائن "[1]

وفي آية الشعراء إنكار من نبي الله صالح عليه السلام لثمود وقومه الذين أعرضوا عن

(١) الكشاف – ٢/٢٥٣.

دعوته وقد غرتهم الدنيا وفتنتهم بملذاتها ومادياتها، وفي قوله تعالى: (في ما ها هنـا) " كناية عن قرية صالح عليه السلام، والسر في إيثار اسم الإشارة (ها هنا) لفت أنظارهم لفتـا قويا لمظاهر النعم التي كـانوا غـارقين فيهـا، (آمـنين) حـال مـن نائـب الفاعـل – واو الجماعة وهو قسيم الترك في الإنكار، إذ ليس ما سلط عليه الإنكار هو الترك وحـده، بل الترك المقرون بالأمن من كل المخاوف ".[١]

وفي آية العنكبوت إنكار علي من توهم من المؤمنين أنه يترك دون امتحان واختبـار لمجرد أنه نطق بالشهادة، وفي قوله تعالى: (أحسب الناس) إيثار الماضـي " لأن حسـبان الذي سلط عليه الإنكار واقع متحقق، وإيثار (حسب) على (ظـن) في هـذه المواضـع هو المناسب بلاغة في مقام الإنكار؛ لأن الحسبان أقوى من الظن، فالنفس مع الحسبان في اطمئنان، ومع الظن في قلق، وفي الناس مجاز مرسـل؛ حيـث أطلـق العـام المنـتظم لجميع أفراد الناس، ثم أريد الخاص، وهم الذين حسبوا هذا الحسبان مـن المـؤمنين " [٢]

وفي آية الإنسان يأتي الإنكار على مـن تـوهم أن يـترك سـدي، أي: لا يبعـث[٣]، والمقصود هنا إثبات المعاد، والرد على من أنكره من أهل الزيغ والجهل والعناد.[٤]

تبين مما سبق أن الفعل (يترك) جاء بصيغة المبني للمجهول؛ لأنه في موضع التوبيخ والإنكار، فيتطلب الذوق البلاغي ألا يذكر لفظ الفاعل تشريفا وتعظيما وتنزيها عـن الذكر في مثل هذه المواقف، ومن شـأن ذلـك – أيضـا – أن يتسـلط الضـوء ويلتفـت

---

(١) د/عبد العظيم المطعني – التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم – ٣/١١٢.

(٢) د/عبد العظيم المطعني – التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم – ٢/١١٢.

(٣) السدي – تفسير السدي الكبير – تحقيق د. محمد عطار – الطبعة الأولي – دار الوفاء – المنصورة – ١٩٩٣ – ٤٨٦.

(٤) ابن كثير – ٣/٥٤١.

الذهن إلى الحدث – وهو الترك – وأثره على أهله.

وإذا نظرنا إلي الفعل (يتلى، تتلى) الذي جاء في القرآن الكريم غير مسمى الفاعل، وجدناه قد جاء في موضع الإنكار والحديث عن المعرضين والمنكرين، وقد جاء – أيضا – في معرض الحديث عن المؤمنين الذين أذعنوا للحق، وأنه قد أتى في حق المنكرين والمعرضين أكثر، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْنَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[الأنفال٣١] فالفعل المبني للمجهول يصور إنكارهم وإعراضهم، وكأننا نسمع أصواتهم عالية تقول: نحن نجهل هذا الكلام ومصدره، وقد جاءت كلمة (آياتنا) مضافة إلي الضمير (نا) لتقريعهم وتبكيتهم، وقد نزلت هذه الآية الكريمة في النضر بن الحارث، " وكان خرج إلي الحيرة في التجارة، فاشترى أحاديث كليلة ودمنة، وكسرى وقيصر، فلما قص رسول الله ﷺ أخبار من مضى، قال النضر: لو شئت لقلت مثل هذا، وكان هذا وقاحة وكذبا، وقيل: أنهم توهموا أنهم يأتون بمثله "[1] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون١٠٥]

هؤلاء القوم المخاطبون هم أهل النار، وفيه ترهيب من مصيرهم وتحذير من الوقوع في مثل ما وقعوا فيه من جراء إعراضهم وإنكار تلاوة آيات الله عليهم، ولذلك جاء التعبير بصيغة المبني للمجهول (تتلى) لتصور طبيعة الموقف وما كانوا عليه في دنياهم.

وقد جاءت تلك الصيغة (تتلى) في سياق الآية المصدرة بالاستفهام المفيد للتقرير والإنذار، وقوله: (آياتي) كناية عن القرآن، والسر البلاغي في إيثارها على الاسم

---

(١) القرطبي – ٤/٢٨٥.

الصريح، ما فيها من خصوصية الدلالة على المعجزات الباهرة، وأوثر حرف الجر (على) على حرف اللام فقال: (عليكم) دون (إليكم) للرمز بعلو شأن الآية، وما فيها من الإيحاء بمعنى الإلزام والعطف بالفاء في (فكنتم بها تكذبون) للتشنيع عليهم في سرعة التكذيب.[١] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً﴾ [مريم٧٣]

وصدرت الآية الكريمة:بـ(إذا) لأن التلاوة مقطوع بوقوعها، وهي وإن كانت محذوفة الفاعل لعدم تعلق الغرض به، إلا أن ذلك الحذف يوحى بمقام التوبيخ والذم والتبكيت، " وتأويل الكلام؛ وإذا تتلي عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين منا ومنكم أوسع عيشا وأنعم بالا وأفضل مسكنا وأحسن مجلسا وأجمع عددا وغاشيته في المجلس نحن أم أنتم "[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية٧- ٨] فهو أفاك كذاب، لا يكتفي بالإعراض والتولي، ولكنه يصر على الكبر والاستكبار، هذا ومن الملاحظ أن تلك الآيات ومثيلتها التي جاءت في معرض الحديث عن المعرضين جاء الفعل الذي لم يسم فاعله (تتلى – يتلى) مقرونا بالكناية عن القرآن الكريم بكلمة الآيات المتصلة بالضمير التفخيمي الدال على عظمة الله – سبحانه – فنزل الآيات، نحو (آياتنا – آياتي).

بينما لم يطرد ذلك الاتصال في معرض الحديث عن المؤمنين الموقنين مثل قوله

---

(١) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم ٣/ ٢٨ - ٢٩.

(٢) الطبري – جامع البنيان في تفسير القرآن – الطبعة الثانية – دار المعرفة – بيروت – ١٩٧٢ – ٨/٨٧.

تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾[الحج:٣٠] فسياق الآية الكريمة وما قبلها يتحدث عن المؤمنين وأدائهم مناسك الحج، وهم أصحاب عقيدة راسخة وإيمان بالغيب، فلم تكن هناك حاجة لذكر لفظ الفاعل، فلم يعد الغرض متعلقا به بقدر ما يتعلق بحدث التلاوة وما اشتملت عليه من تنبيهات وتعالىٰ خاصة بالمؤمنين، ومنه – أيضا – قوله تعالىٰ: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٤]

وربما جاء فاعل التلاوة ظاهر العيان مثبت الوجود سواء كان في معرض الحديث عن المعرضين أو المؤمنين، وذلك حسب ما يقتضيه السياق ويتطلبه المقام، فقد جاء – مثلا – ظاهرا في قوله تعالىٰ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٢].

فتعين هنا بناء الفعل للمعلوم لاقتضاء المقام إظهار ذلك الفاعل (الشياطين) الذين يحدثون ويتسلون على ملك سليمان، فتظهر تلك التلاوة جلية واضحة متقررة الأثر في الأذهان.

وقوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة:٢٥٢] بناء

الفعل للمعلوم لتحقيق أمر العقيدة وإثبات الوحي من الله تعالى، وتحقيق رسالة النبي ﷺ وأنه لا ينطق عن الهوى، فيظهر ذلك جليا في مثل هذه المقامات خصوصًا، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران٥٨]

وربما يكون من الصواب أن ما لاحظناها في صيغه المبني للمجهول مع الفعل (يتلى) نجده يطرد في حق المؤمنين والمنكرين في أفعال أخرى كالفعل (نزل) والفعل (أرسل)، يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة٤]

جاء الفعل (أنزل) بصيغة الماضي دون المضارع (ينزل) مثلا على الرغم من عدم اكتمال الشريعة وقتها؛ لأن " المراد المنزل كله، وإنما عبر عنه بلفظ المضي وإن كان بعضه مترقبا، تغليبا للموجود على ما لم يوجد، كما يغلب المتكلم علي المخاطب، والمخاطب على الغائب، فيقال أنا وأنت فعلنا، كأن كله قد نزل وانتهى بنزوله، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ ولم يسمعوا جميع الكتاب ولا كان كله نزولا "[1].

فهذا مدح للمؤمنين، وإثبات الإيمان لهم أغنى عن ذكر لفظ الفاعل تعظيما ليقينهم (يوقنون)، " وفي تقديم (الآخرة) وبناء (يؤمنون) على (هم) تعريض بأهل الكتاب وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته وأن قولهم ليس بصادر عن إيقان. "[2].

---

(١) الكشاف ٤٢/١.

(٢) الكشاف – ٤٢/١.

ويقول تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة٦٧] فالخطاب للرسول ﷺ بلفظ الرسالة أغنى عن ذكر لفظ الفاعل للعلم والتسليم به، ويقول تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَالْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة٩١].

(قيل) بالبناء للمجهول ولفظ الماضي، لأنه قال ذلك مرارًا وتكرارًا وليس الغرض متعلقا بالشخص الذي قام بدعوتهم، وإنما تعلق الغرض بالمنزل عند الله – تعالىٰ – وأوثر لفظ الجلالة (الله) على لفظ الربوبية لأنه مقام عقيدة وتوحيد وإثبات الوحي من السماء، ويقول تعالىٰ: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْجَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود١٢]

ويقول تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد٢٧]

ويقول تعالىٰ: ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ [ص٨]

فبناء هذه الصيغ للمجهول ينبئ عن مكنون نفوسهم من نفي الوحي وإنكاره وفي آية هود جاء (أنزل) بالبناء للمجهول للدلالة على ذلك، ثبت فاعل (جاء)، (جاء معه ملك) لإرادتهم رؤيته ومعاينته رأي عين. والله تعالىٰ أعلم.

الماء دليل دامغ علي قدرة الله – تعالىٰ – وسر الوجود: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء٣٠]، به أحيا الله الكائنات وبعث فيهم الروح والحياة والحركة الدءوب: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم٢٤] وانزل (أنزل) الماء من السماء فجعله مصدر الحياة علي الأرض التي ترتوي به فتنبت الزرع والنخل والثمار والجنات: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [ق٩]

لذلك ما جاء في كتاب الله – تعالىٰ – بخصوص إنزال الماء من السماء، جاء بالفعل المبني للمعلوم، سواء في سياق الأسلوب الخبري أو الإنشائي، لتتقرر حقيقة قدرة الله ظاهرة معلومة لكل ذي قلب، آخذة بعنان لبه، واضعة يده على دلالة وجود الله وقدرته.

إذا وقفنا أمام مادة (خلف) نجد أنها جاءت بصيغة الفعل المبني للمجهول في أربعة مواضع هي قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة١١٨]

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه٩٧]

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ

وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود١١٠]

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ [فصلت٤٥]

الاختلاف والمخالفة أن يأخذ كل واحد طريقا غير طريق الآخر في حاله أو قوله، والخلاف أعم من الضد، لأن كل ضدين مختلفان وليس كل مختلفين ضدان ولما كان الاختلاف بين الناس في القول قد يقتضي التنازع استعير ذلك للمنازعة والمجادلة قال: (فاختلف الأحزاب – ولا يزالون مختلفين – واختلاف ألسنتكم وألوانكم،) [(١)] وهذه الصيغة المبنية للمجهول التي وردت في تلك المواضع السابقة، نجدها قد جاءت في سياق العتاب أو الذم للمنكرين والمعرضين، أما آية التوبة فجاءت في حق الثلاثة الذين خلفوا: كعب بن مالك، ومرارة بن ربيعة العامري، وهلال بن أمية الواقفي، وهم جميعا من الأنصار المؤمنين، وقد جاءت الصيغة في حقهم (خلفوا) دون (تخلفوا) مثلا إشارة إلي قبح ذلك الفعل وفداحة التخلف عن رسول الله ﷺ، وأن هذا العمل ما كان ليصدر من مؤمن موقن مثلهم، وبناء الفعل (خلفوا) للمفعول فيه دليل آخر على أن هذا التخليف – هو تأخير قبول التوبة – واقع عليهم دون إرادتهم أو رغبتهم، فيه يعيش هؤلاء الصحابة – رضي الله عنهم – مجاهدة نفسية وآلامًا معنوية؛ انتظارا لتوبة الله عليهم.

وقيل: معني (خلفوا) فسدوا، مأخوذ من خلوف الفم[(٢)] وإذا كان الفعل (خلفوا) قد جاء مبنيا لمفعوله، فقد جاء في سياق الآية نفسها الفعل: (ضاقت) مبينا للمعلوم

---

(١) الأصفهاني – المفردات في غريب القرآن – ص١٦٢.

(٢) الشوكاني – فتح القدير ٢/ ٥٨٤.

ومكررا، في سياق الطباق اللفظي بين (ضاقت – رحبت) وذلك ليظهر مدى المعاناة والعنت النفسي الذي يعانونه، حتى صارت الأرض الرحبة الواسعة أمام الأعين ضائقة بهم، وهم ضائقون بها، ولذلك جاءت شبه الجملة (عليهم) مقدما على الفاعل (الأرض)، وهي نفس الصيغة التركيبية في: (وضاقت عليهم أنفسهم).

وفي آية طه جاء الفعل – أيضا – مبنيا لمفعوله، وهذه الآية خطاب من موسي عليه السلام للسامري الذي فتن الناس بالعجل، فكان وعيده بالعذاب يوم القامة جزاء وفاقا لما فعل وضل وأضل.

أما آية (هود) وآية (فصلت) فقد جاء الفعل فيهما (فاختلف) غير مسمي الفاعل، للدلالة – والله أعلم – علي أن هذا الاختلاف ناشيء من خارج ذلك الكتاب – وهو التوراة- الذي آتاه الله موسي عليه السلام، وليس خلافا ناشئا من داخله، وقد وقع الاختلاف " في شأنه وتفاصيل أحكامه، فآمن به قوم، وكفر به آخرون، وعمل بأحكامه قوم، وترك العمل ببعضها آخرون، فلا يضيق صدرك يا محمد ﷺ بما وقع من هؤلاء في القرآن "[1].

ويصور الفعل المبني للمجهول – أيضا – ذلك الشيء الناشيء أوالطارئ على الحجة أوالبينة التي أتاها الله نوحا عليه السلام يقول تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود٢٨]

فالبينة واضحة بذاتها، ناصعة البيان والبرهان، وإنما قام الفعل المبني للمجهول بتصوير ذلك التطور الطارئ عليها من خارجها، وليس كما ذهب الزمخشري إلى جواز

---

(١) فتح القدير ٢/٧٣٤.

إطلاق العمى على الحجة ذاتها، فيقال: حجة عمياء قياسا على: حجة ظاهرة أو بصيرة، فالفعل المبني للمجهول دل على " أن التعمية واقعة عليها لا منها، وفي (عميت) حينئذ استعارة تبعية حيث شبه الإخفاء بالتعمية، بجامع عدم الرؤية في كل، هذا هو اللائق بمعجزات الله أو رسالته إذا كان المراد من البينة هي النبوة أو الوحي أو المعجزة، ولوسلمنا بأن المعجزة تكون عمياء إذا لم تهد إلى الحق، لما سلم كتاب سماوي ولا نبوة ولا معجزة من هذه الوصمة "[1]، ويقال عميت عن كذا، وعمي على كذا: إذا لم أفهمه، قيل وهو من باب القلب، لأن البينة أو الرحمة لا تعمي، وإنما يعمي عنها، فهو كقولهم: أدخلت القلنسوة رأسي[2] وهذا الفعل (عميت) بهذه الصيغة، قد جاء منفردا وحيدا في القرآن الكريم كله.

ويصور الفعل المبني للمجهول – أيضا – في مقام الحديث عن المنكرين والمعرضين الذين يزعمون إنهم مسحورون، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر١٤-١٥]

لوحدث هذا لما آمنوا، وإنما يزعمون أنهم سحروا فخرجت أبصارهم عن إرادتهم فأغلقت رغما عنهم، وهذا الفعل (سكرت) بهذه الصيغة، جاء منفردا وحيدا في القران الكريم كله.

ومما جاء من صيغ بناء للمجهول الفعل (قطع) وذلك في معرض الحديث عن المنكرين والمعرضين ذما لهم وتقبيحا، قوله تعالى: (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الأنعام:٤٥)

---

(١) د/عبد العظيم المطعني – التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم – ١٠٢/٢.

(٢) الشوكاني – فتح القدير – ٦٨٩/٢.

دابرهم يعني: غابرهم وآخرهم، أصلهم وآخرهم.[١] فينصرف الذهن إلى حدث القطع وظهوره في شكل حسي يتراءى أمام العين مع من يقع عليهم ذلك القطع.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة٣٣]

وقوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ [الحج١٩- ٢٠]

بدأت الآية الكريمة بالإجمال (هَذَانِ خَصْمَانِ) هما الكافرون والمؤمنون، وقال (اخْتَصَمُوا) على معنى الجمع ثم التفصيل الذي بدأ بذكر الذين كفروا، وجاءت الأفعال في حقهم مبنية للمجهول (قُطِّعَتْ- يُصَبُّ- يُصْهَرُ- أعيدوا) للدلالة على الذم والتقبيح وهم في مقام التجهيل والإهمال، فينصرف الذهن لمتابعة الحدث ومعموله، فيتراءى أمام العين مشهد التقطيع بصوته المدوي (ولم يقل قطعت بالتخفيف).

ومشهد الثياب المقطعة، ثم يبرز من بعده مشهد صب الحميم وهو الماء المغلي – عافانا الله – فوق الرءوس، وقد تقدم ذكر الرءوس علي الحميم في قوله: (يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ) لأن الغرض متعلق بأثر الصب علي الرءوس، ثم يأتي مشهد الصهر ومشهد الإعادة في عنف بعد محاولتهم الهروب وظنهم استطاعة الخروج، فهذا المشهد بأجزائه " مشهد عنيف صاخب، حافل بالحركة المتكررة، مطول بالتخييل

(١)الدامغاني – الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز – ص ٢١١.

الذي يبعثه النسق، فلا يكاد ينتهي الخيال من تتبعه في تجدده" [(١)].

وقد يقتضي المقام ذكر الفاعل اسما ظاهرا أو ضميرا يعود على اسم ظاهر؛ لتتمثل الصورة حاضرة في أتم وضوح فتؤدي الغرض الذي من أجله جاء، كقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة١٦٦].

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد١٥] وقد ظهر ذلك جليا كما في الآيتين السابقتين في الحديث عن مشاهد العذاب وما تخلفه من تهويل وترهيب تقشعر منه الجلود والأبدان.

البِنَاءُ لِلْمَجْهُولِ فِي مَقَامِ التَّنْزِيهِ عَنِ الذِّكْرِ

قد يأتي المقام مقتضيا عدم ذكر لفظ الفاعل تنزيها له وصيانة وحفظا، ولا سيما أنه معلوم من السياق واضح في الأذهان، وقد جاء ذلك في عدة سياقات من آيات القرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً﴾ [الفرقان٣]

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء٢٨]

﴿خُلِقَ الْأِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء٣٧]

---

(١) سيد قطب – مشاهد القيامة في القرآن – ص٢٥٧.

﴿إِنَّ الْأِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً﴾ [المعارج١٩]

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْأِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق٥- ٦]

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ [النجم٤٥]

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى﴾ [القيامة٣٧]

فهذه مقامات توجه نظر الإنسان وتدفعه إلي التدبر والتأمل، ليري حقيقة كونه وبداية خلقه وتكوينه من ضعف وهلع وشيء مهين مستقذر!

هذا بخلاف التصريح والبناء للمعلوم للفعل (خلق) في موضع آخر كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون ١٢- ١٤] وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ [الصافات١١]

وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ [الواقعة٥٨]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ [الإنسان٢]

فتعين في هذه الآيات بناء الفعل للمعلوم وإظهار الفاعل، لأن هذه الآيات بسياقاتها تمثل مقام إثبات قدرة الله ﷻ وإفراده بالوحدانية خالقا بارئا.

الفَصْلُ الرابع
إعجاز الكلمة

الفصل الرابع: إعجاز الكلمة

تتجلى الدلالة فى وضوح إذا تسلط ضوؤها على النص وبنيته العامه الشاملة، وبنيته الصغرى، فيخرج النص فى إطار فكرى وشعورى مترابط، يكشف عن خباياه وخفاياه، فينكشف غموضه وتزول رتابته والتواؤه، ونقف - بإذن الله تعالىٰ - مع النص وكلمته، وبعض روابطه.

ولا شك أن للكلمة دورًا مهمًا فى الكشف عن جوهر النص وهدفه، فالكلمة لها دلالتها من خلال سياقها الواردة فيه، لأن (معنى الألفاظ المفردة غالبًا ما يكون عامًا غامضًا، ويتلاشى هذا الغموض فى معاني الألفاظ المفردة إذا دخل اللفظ فى ضمائم تركيبة تحدد معناه وتخصصه، ومن هنا يتولد من المعنى المعجمى للفظ معنى آخر يسميه سوفنسكي بالمعنى الراهن أو الحالي فالجمل يتبع بعضها بعضًا وفقًا لنظام سديد، بحيث تسهم كل جملة فى فهم الكلمة التى تليها فهمًا معقولًا، كما تسهم الجملة التالية من ناحية أخرى فى فهم الجمل السابقة عليها فهمًا أفضل فالجملة فى النص لا تفهم فى ذاتها فحسب، وإنما تسهم الجمل الأخرى فى فهمها[1].

وقد تأتى الكلمة مشابهة لأختها أو مكرره فى سياق آخر من القرآن ولكن بدلالة أخرى يفيدها هذا السياق تبعا لما يعالجه من موضع أو حدث، ونقف مع بعض النماذج من هذا التشابه الوارد فى القرآن الكريم، يقول تعالىٰ ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ. فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ

(١) د. محمد العبد - اللغة والإبداع الأدبي - ط ١ - دار الفكر - القاهرة - ١٩٨٩ - ص ٣٥ - ٣٦.

سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام٩٥-٩٦] (فالق الحب- يخرج الحى- ومخرج الميت- فالق الإصباح- وجعل الليل) تغيرت الكلمات من أسم الفاعل ثم إلى الفعل، فلم تكن الكلمات على وتيرة واحدة فهو مشهد حى زاخر بالحياة بعد العدم، يشهد بقدرة الله تعالى.

(فالق الحب)- (فالق الإصباح) إنه تعبير يدل على استمرار تدفق الحياة وتجددها فى النبات، كتدفق الإصباح والحياة فى الكون بعد الليل " إنه ليس إصباح واحد هو الذى فلقته القدرة الإلهية، ولكنه إصباح يولد كل يوم يحيا ويموت،ويموت ويحيا، وهكذا أبد الدهر، ولو جاء النظم هكذا " فلق الإصباح" إنك لا ترى إلا صبحا واحدا يغيب ثم يظهر، ويظهر ثم يختفى وهو هو لا يتغير الزمن حوله و"الإصباح" فى مواجهة "الحب والنوى) إنه ليس صبحا ولكنه إصباح " هو جنين مضمر فى أحشاء الليل أو هو ليل يستجن فى أحشائه "إصباح" فإذا انفلق هذا "الإصباح"لاح الصبح وظهر.[١]

أما الليل فقد جعله الله للسكن والراحة، وجعل الشمس للضياء،والقمر للنور، وجعلها لحساب السنين، فليس فى هذه المخلوقات تدفق الحياة التي نجدها في الحب، والإصباح بحيويتهما وتجددهما ولذلك جاء التعبير بالفعل جعل ليدل على تكرار الحدث لغرض محدد ويقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾[نوح١٥-١٦] فجاء التعبير عن القمر والشمس بالفعل (جعل) للدلالة على الحدث المتكرر لوظيفة معينة، وهى الإنارة للقمر، والسراج

(١) عبد الكريم الخطيب - إعجاز القرآن - ط ١ - دار الفكر العربى - القاهرة - ١٩٦٤ - ١/١٩٠.

للشمس، فالقمر جسم معتم، وجرم مظلم "وإنما يضيء بما ينعكس عليه من نور الشمس التى هى (سراجه)، فالنور لا يكون من ذات نفسه ابتداء، ولابد له من مصدر يبعثه فذكر السراج بعد النور دليل على أن هذا مصدره ذاك".(١)

أما التعبير بالفعل (خلق) فهو يأتى فيما لا يتكرر، كالآية السابقة، وكذا الفعل فى كل ماورد فى القرآن الكريم من الخلق والجعل، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿لَ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ [فصلت ٩] وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم ٥٤] وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾

المَطَرُ والغَيْثُ

لم تحمل سياقات القرآن الكريم كلمة المطر إلا فى العذاب والأذى وقد وردت فى خمسة عشر موضعا، منها قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف ٨٤]

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود٨٢]

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء ١٧٣]

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾ [النساء١٠٢]

أما فى مقام الرحمة والإغاثة، فجاء التعبير بكلمة (الغيث)، وذلك فى ثلاثة مواضع

---

(١) الرافعى - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - ط ٤ - مطبعة الاستقامة - القاهرة - ١٩٤٥ - ص ٢٣٦.

هى فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ [لقمان٣٤] ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾[الشورى٢٨] ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ [الحديد٢٠] فكان الغيث فى هذه المواضع (مواضع إظهار رحمة الله تعالى) يعبر عن حالة من نزل عليهم الغيث، فقد وصلوا إلى مرحلة بالغة الصعوبة والشدة ولذلك قرن السياق كلمة (الغيث) مع الساعة وهولها وخفاء علمها، وعجز الإنسان عن إدراك علم ما في الأرحام، وقرنها فى الآية الثانية بالقنوط، فجاء نشر الرحمة، وفى الثالثة قرنها بأزهى حالات الزرع والنبات ووصول الإنسان إلى منتهى سعادته به، ثم يزول وينتهى.

أما مواضع ذكر نزول (الماء) فهى كثيرة فى القرآن الكريم (وتأتى فى مواضع إظهار قدرة الله)، وتأتى بلفظ(أنزل- نزل- ينزل) للدلالة على علو الماء المنزل، وهى إشارة لإعجاز عملية التكوين والإنزال، فهى مظهر من مظاهر قدرة الله تعالى،يعجز الخلق عن إدراكها ولذلك يأتى – دائما – التعبير عن نزول الماء من السماء بإسناده إلى لفظ الجلالة (الله) دون الربربية (رب)، وفى مواضع قليلة بالضمير، منها قوله تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾[المؤمنون١٨]

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾[الفرقان ٤٨]

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ١٤]

ثَمَّ

لا يشار بها إلا للبعيد على وجه الخصوص، ولها خصوصية أخرى وهى: لا تلحقها كاف الخطاب، ولا (ها) التنبيه مثل هناك، ها هنا، وهذه الخصوصية المعنوية

لهذا الإسم جعلته يأتى فى مواضع محدودة فى القرآن الكريم لها – أيضا – خصوصية عظيم من حيث الحدث أو تمثيل الموقف، وقد جاء فى أربعة مواضع هى: قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة١١٥]

والآية سيقت فى إظهار خصوصية ملك الله تعالى، (أى بلاد المشرق والمغرب والأرض كلها لله، هو مالكها ومتوليها (فأينما تولوا) ففى أى مكان فعلتم التولية (فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) أى جهته التى أمر بها ورضيها" وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء٦٤] أى قربنا فرعون وجنده من البحر، وهو مقام إظهار حدث خاص ومعجزة تعلوها المهابة والرجفة، وذلك فى إغراق الطاغية وجنده بعد طول فساد وإفساد.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان٢٠] والآية الكريمة تصور مقاما غيبيا، قد تناهى فى العظيمة والجلال وبعد المكانة ورفعتها، لأن الحديث قد جاء عن نعيم الجنة وملكها الكبير.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير ١٩- ٢١] فجاء استخدام (ثم)هنا بخصوصيتها المذكورة سابقة، للدلالة على المكانة الرفيعة الخاصة فى هذا المقام العلوى لجبريل عليه السلام – والنبى محمد ﷺ فجبريل: " ليس من أفناد- أى جماعات- الملائكة، بل هو من السادة والأشراف، معتنى به، انتخب لهذه الرسالة العظيمة، وقوله تعالىٰ (أمين) صفة لجبريل بالأمانه،وهذا عظيم جدا، أن الرب عز وجل زكى عبده ورسوله جبريل، كما زكى عبده ورسوله البشرى

محمدًا ﷺ ".[١]

أَكُ - تَكُ - يَكُ

هى (أكون - تكون - يكون)، فإذا دخل عليهاالجازم صارت لم أكن - لم تكن - لم يكن، ثم تحذف النون تخفيفا كما ذكر النحاة..

وقد جاءت فى القرآن الكريم فى مواضع عديدة، إلا (أك) فإنها لم تأت إلا فى موضع واحد فى سورة مريم: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [الآية ٢٠]

وحذف النون فيه إشارة إلى غرابة الموقف، بل هو أغرب موقف فى القرآن وفى حياة الخلق عمومًا فهو موقف وحيد فريد فى الحياة، وهذه الصيغة وحيدة فريدة فى القرآن كله،ويدل الحذف أيضا على حذف أدنى شبهة فى حق مريم عليها السلام ومبالغة فى تنزيه ساحتها. وبالنظر للسياقات التي ورد فيها هذا التعبير، نجدها - والله أعلم - أنها لم تأت للتخفيف وحسب، ولكنها أتت لعلة أبلغ من ذلك وأهم، بدليل أن هذا التعبير قد جاء فى سياقات أخرى عديدة دون حذف النون فمثلًا يقول تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء ٤٠] فحذف النون إشارة إلى التقليل. فلا يضيع شيء عند الله تعالى، وحتى لو كانت أقل حسنة فإن الله يضاعفها، وعبرت بـ (لدنه) دون (عنده) مثلاً لما تشتمله الأولى على اللين والرحمة.

ومما يشهد لذلك - أيضا - مجئ حذف النون من (تكن) فى سياق التقليل كما فى قوله تعالى ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي

---

(١) ابن كثير ٣/ ٦٠٨.

الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ [لقمان ١٦]

فالمقام مقام إظهار قدرة الله تعالىٰ على الإتيان بالشيء مهما دق أو صغر فكان حذف النون إشارة إلى هذه القلة، وقد ساعد السياق على ذلك بما اشتمل عليه من قول (إن) للتقليل دون (إذا) الدالة على التحقيق وقوله (مثقال) و(حبة) بالإفراد والتنكير التقليلي، وقوله (خردل) قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل ١١٧]

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل ٧٠] خصت هذه الآية – آية النحل – بالحذف دون آية النمل، موافقة لما قبلها، وهو قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل ١٢٠]

وهذه الآية آية النحل – نزلت تسلية للنبى ﷺ حين قتل عمه حمزة ومثل به، فقال عليه الصلاة والسلام " لأفعلن به ولأصنعن " فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ. وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل ١٢٦-١٢٧] فبالغ فى الحذف ليكون ذلك مبالغة فى التسلى، وجاء فى سورة النمل على القياس، ولأن الحزن هنا دون الحزن هناك ".[1]

وقوله تعالىٰ ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود ١٧] وقوله تعالىٰ: ﴿لَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا

(١) الكرمانى. ص ١٢٦ - ١٢٧.

يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾[هود ١٠٩] فربما كان حذف النون فى هذين الوضعين لنكتة بلاغية قد أشار إليه الشوكانى فى قوله: " وهذا النهى له ﷺ هو تعريض لغيره ممن يداخله شيء من الشك، فإنه ﷺ لا يشك فى ذلك أبدا ".(١)

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾[مريم ٨-٩] وقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا . أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾[مريم٦٦-٦٧] وقوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان١] فحذف النون من آيتي (مريم)، وثبتت فى آية (الإنسان) فالسياق فى آيتى مريم قد دل على موقف المتعجب، ففى الآية الأولى تعجب زكريا – عليه السلام – من إنجابه ليحيى فى ظل استحالة ذلك من الناحية العقلية والتجريبية، فزوجته عاقر وهو قد بلغ من الكبر عتيا، وفى الآية الثانية يظهر موقف الإنسان المعجب فى إنكار: هل هناك بعث بعد الموت ؟! فالجواب فى الآيتين – إذن مبنى على إنكار وتعجب أما آية الإنسان فالخبر مسوق ابتداء دون أن يبنى على موقف سابق فكان الإثبات أولى.

الأَلْبَابُ وَالقُلُوبُ

لُبُّ كل شيء، ولبابه: خالصه وخياره، واللباب الخالص من كل شيء، واللُّبّ: العقل(٢) وقد وردت كلمة (الألباب) فى كثير من المواضع فى القرآن الكريم(٣)، وهى

---

(١) فتح القدير للشوكانى ٦٨٢/٢.

(٢) لسان العرب. مادة (لبب).

(٣) ستة عشر موضعا.

لم تأت إلا جمعا، ولا تأتى إلا فى موضع فيه حث على التدبر والتذكر أو الهداية والتقوى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة٢٦٩] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران١٩٠] وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف١١١] وقوله تعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص٢٩] بينما يأتى ذكر القلب مفردا ومثنى ومجموعا، مجردا أو مضافا إلى ضمير المذكر أو المؤنث وقد يأتى القلب للدلالة على عاطفة الإنسان وأحاسيسه وتأثره، كقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر٢٢]

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر٢٣] فدلت كلمة القلب فى الآية الأولى على قسوة الأحاسيس والمشاعر وبُعد التأثر بذكر الله، ودلت فى الثانية على رقة العاطفة ولينها. ومن ذلك أيضا فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران ١٥٩] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد ١٦] وربما جاء القلب ليبين نية الإنسان وعزمه، كقوله تعالى: ﴿لَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة٢٨٣]

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قلوبهم﴾ [آل عمران ١٦٧] ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [النساء٦٣] ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ

قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب٥]

وقد يأتى ذكرالقلب للدلالة على روع الإنسان ورباطه جأشه أو هلعه أو جزعه، كقوله تعالىٰ ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ [آل عمران١٢٦] ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال ١١] ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص١٠] وفى بيان الهلع والجزع ن قال تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ [غافر ١٨] ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ .

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [الأحزاب٢٦].

وقد يأتى ذكر القلب فى مقام عدم التدبروالفهم للدلالة على طمس البصيرة والغفلة: كقوله تعالىٰ: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف ١٠١]

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف ١٧٩] ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الكهف٢٨] ﴿فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج٤٦]

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين١٤] ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد ٢٤]

الفُوهُ واللِّسَانُ

جاء ذكر الفيه فى القرآن الكريم فى مواضع عديدة،[١] كلها على صيغة الجمع إلا موضع واحد فى قوله تعالىٰ: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ [الرعد١٤] والسياقات التى وردت فيها هذه الكلمة تحمل كلها الذم والتحقير أو بيان الكذب والبهتان، كقوله تعالىٰ: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران ١١٨]

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [التوبة ٣٢]

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف ٥]

أما ذكر اللسان فيأتى فى مواضع المدح والذم على السواء كقوله تعالىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم ٥٠] أى: جعل لهم الثناء الحسن

وكقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم ٩٧]

وكقوله تعالىٰ فى الذم: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ [النحل٦٢] وقد يأتى ذكر اللسان على سبيل المجاز، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [ابراهيم٤]

أى بلغه. يقول تعالىٰ: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا

---

(١) فى ثلاثة عشر موضعا.

لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ [آل عمران ١٦٧]

ويقول تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ [الفتح ١١]

فجاء التعبير بأفواههم فى آية (آل عمران)، وجاء التعبير بألسنتهم فى آية (الفتح)، والعلة فى ذلك – والله أعلم – أن آية آل عمران تحدثت عن المنافقين وهم أشد خبثا وخطرا من الكافرين، فناسبهم الأفواه، لبيان أن كلامهم لم يجاوز أفواههم، وإنما كان خارجا عن الحقيقة، أما فى آية الفتح فجاء الحديث عن قوم مخصوصين وهم الأعراب الذين تخلوا عن رسول الله ﷺ فى عمرة الحديبية، ولذلك جاء التصريح بقوله (لكم) فى قوله (قل فمن يملك لكم من الله شيئا)، على حين لم يأت التصريح بها فى آية المائدة فى قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [المائدة ١٧]

فهذه الآية الكريمة عامة فى المسيح وأمه ومن فى الأرض جميعا فليس هنا مخاطب خاص.(١)

بَعضُ الأَمثِلَةِ لِلكَلِمَةِ الَّتِى تَأتِى مُنفَرِدَةً

إن القرآن الكريم قد خاطب العرب بما عرفوه وألفوه، فلم يكن أسلوبه غريبا

---

(١) كشف المعانى ص ١٤٧.

عليهم، حتى الكلمات التي عدَّها العلماء غريبة ووحيدة فى القرآن، قد عرفها العرب واستخدمها الشعراء فى أشعارهم، بل صارت الكلمات الثقيلة الأحرف والنطق نحو (فسيكفيكهم الله) و(اثاقلتم) مستساغة المنطق والفهم لاستدعاء السياق لها.

وقد أتت بعض الكلمات وحيدة فى القرآن الكريم كله، وذلك من حيث الصياغة والمادة، أو من حيث الصياغة فقط وقد وردت فى مسائل نافع بن الأزرق.

كلمة (ينعه)

قال تعالى: ﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه﴾ [الأنعام٩٩].

(ينعه) أى: نضجه، وهذه الكلمات لم تتكرر فى القرآن الكريم فى صيغتها ومادتها، وذلك لأن سياقها لم يتكرر، فالأمر هنا بنظر التأمل والتدبر، ليرى الإنسان قدرة الله فى الثمر ونضجه وكيف تحول من حبة فى الأرض إلى ثمر ناضج معتدل، وقد أتى الحديث عن الثمر فى القرآن الكريم فى عشرين موضعا غير الموضع السابق، ولم يأت الأمر بالنظر إلا فى هذا الموضع، وكان سياق الآيات الأخرى فى معظمها يحمل التذكير بنعمة الله تعالى، كقوله: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام ١٤١]

﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [ابراهيم٣٢]

﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل١١]

كلمة (فأجاءها المخاض)

قال تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا. فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم٢٢-٢٣]

ولم يأت الفعل (أجاء) رباعيا مزيدا بالهمزة إلا فى هذه الآيه، وأما الثلاثى منه فكثير، مبنيا للمعلوم وللمجهول، والمعنى الذى اختاره المفسرون هو: ألجأها واضطرها، وفى الإجاءة بها من معنى شدة الموقف وعسر الاضطرار، مما ليس فى كلمة ألجأها " بما تفيد من معنى الملجأ والملاذ،بصريح آياتها الثلاثة فى الكتاب المحكم.[1]

يقول تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة ٥٧]

﴿وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة١١٨]

﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ [الشورى٤٧]

كلمة (ضيزى)

الضيز: الظلم والجور، فهى قسمة جائرة،وهذه الكلمة وحيدة فى القرآن الكريم من حيث الصياغة والمادة،وهى لفظة غريبة من أغرب ما فيه، وما حسنت فى كلام قط إلا فى موقعها منه،ومع ذلك فإن حسنها فى نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه،ولو أدرت اللغة عليها ما صلح لهذا الموضع غيرها، فإن السورة التى هى منها – وهى سورة النجم – مفصلة كلها على الياء، فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل، ثم هى فى معرض الإنكار على العرب إذ وردت فى ذكر الأصنام وزعمهم فى قسمة الأولاد فكانت غرابة اللفظة أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التى أنكرها، ووصفت حالة المتهكم فى إنكاره من إمالة اليد والرأس بهذين المدّين فيها إلى الأسفل

(١) د. عائشة عبد الرحمن - الإعجاز البيانى للقرآن - ط ٢ - دار المعارف - القاهرة - ١٩٨٧ - ص ٣٢٥.

والأعلى وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية ".[١]

كلمة (أبابيل)

قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ [الفيل٣].

"لم ترد فى القرآن الكريم كله إلا فى هذا الموضع، وتفردها يدل على تفرد الحدث والموضوع، وهو هلاك أصحاب الفيل بالمعجزة الإلهية ولم يذكر الفيل فى القرآن كله – أيضا – إلا فى هذا الموضع وهو وصف لعذاب لم يتكرر، فهو حدث فريد ناسبة هذا التعبير الفريد، والكلمة فى ذاتها تقوم بتصوير المشهد تصويراحيا دقيقا فهى طير أبابيل، تذهب وتجئ فى حركة مضطربة لتضرب رؤوس أصحاب الفيل بالحجارة التى من (سجيل)، فتبلبل عليهم رؤوسهم – كما يقول ابن عباس (رضى الله عنه) – وتكرير الباء واللام فى اللغة العربية "فيما فيه ملحظ اضطراب واختلاط. بلبلة الأسنة،أى اختلافها. بلبل القوم: هيجهم، وفارقت العربية بين الحسى فى البلبلة،والمعنوى فى البلبال، للهم الشديد يضطرب له البال من اختلاط الوساوس وكثرة الهواجس، وكل ذلك يعطى كله "أبابيل" حس البلبلة والبلبال"[٢].

كلمة (ريشا)

قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف٢٦]

(ريشا) الخصب والمعاش والحال والأثاث واللباس الحسن الفاخر.[٣] فجمعت

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى ص ٢٦١.

(٢) الإعجاز البياني للقرآن الكريم صـ٤٤٩.

(٣) اللسان. مادة (ريش).

الكلمة كل مظاهر الزينة بعد ستر العورة وسد الضرورة، ولم يذكر فى القرآن الكريم غير هذه الكلمة، وقد جمعت كل المعانى المذكورة فى لفظ واحد ولا يقوم بذلك غيرها، وقد تدرج السياق من الأدنى فى اللباس الذى يوارى السوآت إلى الرياش، ثم الإنتقال إلى اللباس الحق الخالد (لباس التقوى).

(حنانا)

قال تعالىٰ: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا . وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم١٢]

فلم تأت فى كتاب الله كلمة (حنانا) إلا فى هذ الموضع، فهى وحيدة فى مادتها وصياغتها، وجاءت لتعبر عن موقف فريد وهو مجئ هذا المولود (يحى)لأب قد طعن فى السن (زكريا عليه السلام) ولأم عاقر، يقول تعالىٰ ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا . قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم ٧-٨] فكانت هذه الكلمة حنانا أقدر من غيرها على التعبير عن أثر هذا المولود لأبوين فى مثل ظروفهما، ومدى ما يلقاه الأبوان الكبيران من حنان الابن، ومما يشيع جو الرحمة والحنان مجئ الحنان فى الآية مسندا إلى قوله تعالىٰ (من لدنا) مؤثرا ذلك على (من عندنا) مثلا. لأن اللدن: اللين من كل شيء كما أفاده اللسان.

بَعْضُ الأَمْثِلَةِ لِلْكَلِمَةِ الَّتِى تَأْتِى مُكَرَّرَةً

كلمة (نُنشِزُ)

يقول تعالىٰ: ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ [البقرة ٢٥٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ ﴾ [النساء ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا ﴾ [المجادلة ١١].

فقد وردت كلمة النشوز فى ثلاث آيات، وجاءت فى كل آية بمعنى مختلف دل عليه السياق الذى وردت فيه الكلمةو (العظام كيف ننشزها) أى: نحركها ونرفع بعضها إلى بعض للتركيب، وقرأ الحسن: ننشرها، من نشر الله الموتى، بمعنى أنشرهم فنشروا[1].

والنشوز يكون بين الزوجين وهو كراهة كل واحد منهما صاحبه، ونشزت المرأة بزوجها وعلى زوجها تنشز وتنشز نشوزًا، وهى ناشز: ارتفعت عليه واستعصت عليه وأبغضته وخرجت عن طاعته[2] والنشوز فى آية المجادلة بمعنى القيام والارتفاع.

كلمة (رأى)

الرؤية إدراك المرئي، وقد وردت فى سياق القرآن الكريم فى عدة مواضع بمعان مختلفة، نتبينها فى الآيات الآتية:

ترد الرؤية بمعنى الحاسة وما يجرى مجراها نحو:

قوله تعالى: ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ [التكاثر ٦ - ٧].

وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ [الزمر ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف ٢٧].

---

(١) الزمخشرى – الكشاف – تصحيح مصطفى حسين أحمد – ط ٣ – دار الريان – القاهرة – ١٩٨٧ – جـ ١ ص ٣٠٨.

(٢) ابن منظور – لسان العرب – دار الكتب العلمية – بيروت – مادة (نشز).

وترد الرؤية بمعن الوهم والتخيل نحو:

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ [الأنفال ٥٠].

وترد الرؤية بمعنى العقل نحو قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم ١١].

وترد بمعنى التفكر نحو قوله تعالىٰ: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال ٤٨].

ورأى إذا عدى إلى مفعولين اقتضى معنى العلم نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ [سبأ ٦].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف ٣٩].

ويجرى أرأيت مجرى أخبرنى فيدخل عليه الكاف ويترك التاء على حالته فى التثنية والجمع والتأنيث ويسلط التغيير على الكاف دون التاء[1]. يقول تعالىٰ: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الإسراء ٦٢].

كلمة (الوسواس)

ولهذه الكلمة معان متعددة بحسب سياق الجملة، فهى تعنى صوت الحُلي، قال الأعشى[2]:

تسمع للحلى وسواسًا إذا انصرفت كما استعان بريح عشرق زجل

---

(١) الراغب الأصفهانى – المفردات فى غريب القرآن – تحقيق وائل عبد الرحمن – المكتبة التوفيقية – القاهرة – سـ ٢٠٠٣ صـ ١٨٩.

(٢) الأعشى – ديوان الأعشى الكبير – ط ١ – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٩٨٧.

والوسواس: الصوت الخفى المراد فى قوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه ١٠٨].

والهمس كل صوت خفى سواء كان بالقدم، أو من الفم، وغير ذلك، ويؤيده قراءة أبى بن كعب: "فلا تنطقون إلا همسًا[١]"

والوسوسة: صوت الشيطان، والوسواس: الشيطان نفسه فى قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ [الناس ٤]، لأنه وصفه بالخناس ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس ٥]، والوسواس: همس الطائر[٢].

كلمة (الولي)

جاءت فى غير موضع من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة ٢٥٧].

قد يطلق الولى على من يقوم على أمر اليتيم، أو يلى عقد زواج المرأة، وكلمة (الولى) قد تكرر ذكرها كثيرًا، وهو اسم يقع على جماعة كثيرة فهو: الرب المالك والسيد والمنعم والمعتق والناصر والمحب والتابع والجار وابن العم والحليف والصهر والعبد والمعتق، ثم عقب ابن منظور فى لسان العرب على ذلك بقوله: وأكثرها قد جاءت فى الحديث فيضاف كل واحد لإلى ما يقتضيه الحديث الوارد فيه.

---

(١) الشوكانى – فتح القدير – تحقيق د. عبد الرحمن عميرة – ط ٢ – دار الوفاء – المنصورة – ١٩٩٧ – ج ٣ ص ٥٣٠.

(٢) ابن الشجرى – ما اتفق لفظه واختلف معناه – تحقيق أحمد حسن – ط – دار الكتب العالمية – بيروت – ١٩٩٦ – ص ٣٢٥.

واللغة العربية تزخر بالكلمات التى تتغير دلالتها بتغير الجملة، وهذا التغير الدلالى للكلمة يتحدد وفقًا لمعايير منها ما يأتى[١]:

تحديدها من خلال وضع اللفظ فى الجملة، فكلمة (أرض - أرضية) تصبح أكثر تجسيمًا فى جملة مثل: تغيرت طرقات الحذاء عند السير فوق أرض رطبة.

من خلال وضع الكلمة فى تركيب إضافى أو مزجى، نحو: بورسعيد فى مقابل: سعيد، أو فى تركيب وصفى، فكلمة (حافظة) يتخصص معناها أكثر فى تراكيب مثل: حافظة الطفل، حافظة النقود.

أو يتم التحديد من خلال تابع، كالبدل، نحو: إلى مدير مكتب العمل، السيد..، أو يتم التحديد من خلال وضع الكلمة فى استخدامات مجازية نحو: رأس الدولة، فى مقابل: الرأس.

الحُرُوفُ وَدَلَالَتُهَا فِى النَّصِّ

إذا كانت اللغة العربية فى كلامها تشتمل على اسم متمكن أو غير متمكن ليدل على معنى سمي به، وفعل دال على حدث اسم مشعر بالزمان، فإن الحرف يأتى ليكون صلة بين الاسم والفعل.

وهو قد لا يغير اللفظ والإعراب ويغير المعنى فيحول الجملة - مثلًا - من التحقيق إلى الاستفهام وقد يحدث العكس فيغير اللفظ الإعراب كما لو قلت: عمرو فى المدرسة، ثم قلت: إن عمرًا فى المدرسة فالإعراب قد تغير وزادت الدلالة على التوكيد وقد يغير الحرف اللفظ والمعنى، كما لو قلت المودة قائمة بين الأخوة، ثم تقول لعل المودة قائمة، فتحولت الجملة من التحقيق إلى الترجي.

---

(١) د. محمد العبد - اللغة والإبداع الأدبى - ص ٣٥.

وقد أورد عبد القاهر الجرجاني فى الدلائل سؤال الكندى لأبى العباس قائلًا: إنى لأجد فى كلام العرب حشوًا، يقولون: عبد الله قائم، ثم يقولون إن عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله لقائم.

فالألفاظ متكررة والمعنى واحد، فقال أبى العباس: بل المعانى مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم: "عبد الله قائم" إخبار عن قيامه، وقولهم: "إن عبد الله قائم" جواب عن سؤال سائل، وقولهم: "إن عبد الله لقائم" جواب عن إنكار منكر قيامه[١].

فالمعنى تغير تبعًا لتغير الجملة واختلفت الدلالة نظرًا لدخول حروف جديدة في بناء الجملة.

أما الحروف الزوائد فهي من الحروف التى دار حولها كلام كثير لأهل اللغة وهى فى حقيقتها نوعان، (نوع يسمى: حروف المعانى، لأنه يفيد معنى جديدا يجلبه معه، ونوع ليس من المعانى، وإنما هو زائد أو مكرر، وكلاهما لتوكيد معنى موجود، مثل: نعم. نعم، أو لا. لا.أو غيرهما من الحروف المكررة، لإفادة توكيد المعنى القائم، والذين يعتبرون التوكيد معنى – على الرغم من أنه ليس جديدًا – يدخلون هذا النوع في حروف المعاني، أما غيرهم فلا يدخله فيها، وهذا هو المشهور)[٢].

الواو

تأتى الواو فى مواضع كثيرة من سياق الكلام، ولها فى كل موضع تأتى فيه دلالة يتطلبها سياقها، فموضع الاستئناف غير العطف وغير المعية التى تظهر فى قول

---

(١) دلائل الإعجاز – ص ٣١٥.

(٢) عباس حسن – النحو الوافى – ط ١٢ – دار المعارف – القاهرة – ١٩٩٥ – ج ١ ص ٦٦.

الشاعر: [(١)]

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

فدلالة الواو هنا على المعية، وليست على العطف، إذ لو كانت للعطف لاختل المعنى، وتظهر الواو بدلالة العطف في كثير من المواضع، نحو قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة ٥].

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ﴾ [الرعد ٥].

فهنا نجد الواو قد توسطت بين الجملتين بالعطف على الرغم من أن ما بعد العاطف يغاير ما قبله إلا أن بين الجملتين نوع ارتباط، في حين أن الواو العاطفة قد سقطت في موضع آخر للدلالة على أن الجملة الثانية كأنها الأولى[(٢)]، وذلك فى قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف ١٧٩].

الفاءُ وثمَّ وعاملُ الزمن

من المعروف عند أهل اللغة أن (الفاء) لها دلالة التعقيب أو السرعة، فهي تطوى الفاصل الزمنى على خلاف (ثم) التى لها دلالة التراخى والانفصال فى الزمن، فحين (يستقصر الزمان الطويل بين شيئين، فيؤتى بالفاء لكون العادة مقتضية لمثله أو أزيد منه، ويستطال القصر بين آخرين، فيؤتى بثم لاقتضاء العادة أقل منه، يقال: فلان تزوج فولد له، والفصل بينهما بشهور، وأكل ثم شرب، والفصل بساعات، ثم أنه

(١) البيت لأبى الأسود الدؤلي، وقيل: للمتوكل الكناني.

(٢) الزركشى – البرهان فى علوم القران – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – دار التراث – القاهرة – ج ٤ ص ١٠٧.

يستقصر الزمان بين شيئين تارة لاعتبار مناسب، فيؤتى بالفاء، ويستطال ذلك الزمان بعينه بين ذينك الشيئين لاعتبار آخر، فيؤتى بثم)[١].

فاقتضاء المقام له اعتبار مهم، فينظر لأحوال المتكلم ومن يخاطبه وماهية الزمان عنده، فقد يكوْن فى شعور بهيج يرى كل شيء حوله يتقاصر فى الوقت والزمان من فرط سعادته وبهجته، وقد يعلوه الضيق وتشتد به الكآبة فيرى الزمان قد ربطت عقاربه بالجبال الرواسي.

وفى القرآن الكريم جاءت مواضع عديدة تحمل فى سياقها (الفاء وثم) لتدل على معنى يراد شرحه وربطه بواقع الإنسان، ونقف مع قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف ٤٥].

فالمثل الذى ضربه المولى عز وجل هو مثل للحياة الدنيا وشدة قصرها، فقام حرف الفاء بطي الزمان ليعبر عن تلك الحالة ويشرحها شرحًا مجسدًا، بداية من نزول الماء واختلاطه بنبات الأرض إلى أن أصبح (هشيمًا تذروه الرياح) إنها مرحلة البداية والنهاية، وما بينهما قد طواه الزمن عن طريق الفاء فى (فأصبح)، وسرعة الاختلاط (فاختلط) ليكون الربط بين سرعة زوال الدنيا وفنائها بعد نضارتها وزينتها، وبين تحول النبات إلى هشيم بمجرد أن كان مختلطًا بماء السماءفهذا (المشهد يعرض قصيرًا خاطفًا ليلقى فى النفس ظل الفناء والزوال، فالماء ينزل من السماء فلا يجرى ولا يسيل ولكن يختلط به نبات الأرض، والنبات لا ينمو ولا ينضج، ولكنه يصبح هشيمًا

(١) محمود بن محمد الجونفوري – الفرائض فى شرح الفوائد – المطبعة المجيدية – ١٣٣١ ص ٢٤.

تذروه الرياح، وما بين ثلاث جمل قصار، ينتهى شريط الحياة، ولقد استخدم النسق اللفظى فى تقصير عرض المشاهد الذى تدل عليه الفاء: "ماء أنزلناه من السماء" فـ "اختلط به نبات الأرض" فـ "أصبح هشيمًا تذروه الرياح" فما أقصرها حياة! وما أهونها حياة)[١].

وفى موضوع آخر تأتى الفاء لتصور وقوع الأحداث واضطرابها وسرعة حركتها، ويظهر ذلك فى قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ [البقرة ٢٦٦].

فنحن أمام مشهدين مختلفين فى الأداء والحركة والنتيجة، فالمشهد الأول حيث النعيم والاسترخاء وطيب العيش، فجاءت الواو لتظهر هذا المشهد برتابته وتنعمه وتخرج الأحاسيس والمشاعر.

والمشهد الآخر على النقيض تمامًا من الأول، فيظهر فى المشهد الآخر عنف حركة الإعصار وشدته وهو يعصر كل شيء ثم الاحتراق فجاء بالفاء لتصور ذلك الانقلاب وسرعة الانقضاء.

التصوير الفائى

ومن ذلك التصوير الفائى أيضًا: قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود ٦٧].

---

(١) سيد قطب – فى ظلال القرآن – ط ١ – دار الشروق – ١٩٩٦ – ج ٤ ص ٢٢٧١.

قوله تعالىٰ: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود ٩٤].

قوله تعالىٰ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [العنكبوت ٣٧].

فـ (كذبوه) فـ (أخذتهم) فـ (أصبحوا) لقد أحدثت الفاءات هنا إيقاعًا سريعًا متلاحقًا وكأنه يرتجف وهو الآخر من هول الرجفة التى أخذتهم، فاشتعل المشهد لاجتماع الزمان الخاطف مع الحركة الخاطفة.

ويلاحظ المتأمل هنا الإفراد فى آية العنكبوت فقال جل شأنه: (دارهم)، أما فى آيتى هود فجمعها، فقال (ديارهم)، وذلك لمقتضى السياق ووقائع المشهد فالإفراد فى آيتى العنكبوت جاء مناسبًا لنوع الأخذ أو العقاب وهو (الرجفة) فارتجفت بهم الأرض رجفًا عنيفًا فيراها الرائى دارا واحدة من شدة الزلزلة وسرعة حركتها المذهلة، فلا ترى ديارًا حينئذ، ولكنها تبدو دارًا واحدة، وإذا فعل الإنسان هذه الحركة العنيفة فى سرعة وتلاحق فى عدة أشياء فى يده، رآها شيئًا واحدًا وليست عدة أشياء.

أما الجمع فى آيتى هود لأن نوع الأخذ أو العقاب كان هلاكًا بالصوت فافتقد المشهد هنا الحركة وحل محله المشهد الصوتى، والله تعالىٰ أعلم أما التذكير فى الآية الأولى (وأخذ) فجاء على التخفيف لحذف حرف منه، وجاء التأنيث فى الآية الآخرى لأنه (وافق ما بعدها وهو (كما بعدت ثمود)، قال الخطيب: لما جاء فى قصة شعيب مرة (الرجفة) فى قوله تعالىٰ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف ٩١]، ومرة (الظلة) فى قوله تعالىٰ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [الشعراء ١٨٩]، ومرة

(الصيحة) ازداد التأنيث حسنًا)[١].

وفى موضوع آخر من كتاب الله العزيز جاءت الفاء لتبرز حركة الزمان وتلاحقه، فقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات ٢٤ - ٢٧].

فراغ فجاء فقربه.

لقد رسمت هذه الفاءات سرعة الحركة وتقاصر زمن العمل، وأبرزت المشهد الحركى فى سعى دؤوب يجسد الكرم النبوى وبلاغة الضيافة، فلا يختلج فى النفس شيء يدعو إلى أدنى درجات التباطؤ أو التكاسل الناشيء عن البخل وشح النفس، فجاءت الفاء لتصور تدفق العطاء غير المحدود فى ظل رضا نفسى تام.

ثمَّ

وهو حرف جليل السر، عظيم الأثر فى دلالة النص، وله سمة بلاغية تميزه عن الفاء، وإلى ذلك أشار سيبويه فى قوله: (مررت بزيد فعمرو، ومررت برجل فامرأة، فالفاء أشركت بينهما فى المرور وجعلت الأول مبدوءا به، ومن ذلك: مررت برجل ثم امرأة، فالمرور ها هنا مروران، وجعلت (ثم) الأول مبدوءا به، وأشركت بينهما فى الجر)[٢].

فإذا كانت الواو تفيد الاشتراك فى الحكم دون إشارة الترتيب أو معية، فإن الفاء لها دلالة التعقيب، وقد جعلت فى مثال شيخ النحاة المرور، مرورًا واحدًا، وجاءت (ثم) فجعلت المرور مرورين.

---

(١) الكرمانى – البرهان فى متشابه القرآن – تحقيق أحمد خلف الله – ط ٢ – دار الوفاء – المنصورة – ١٩٩٨ – ص ٢٠٢.

(٢) سيبويه – الكتاب – تحقيق محمد عبد السلام هارون – العيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٧٧ – ١ / ٤٣٨.

وإذا كانت الأحرف الثلاثة السابقة للعطف، فإن الواو – كما ذكر النحاة – تهدف لتفصيل المسند إليه، والحرفان الآخران يهدفان إلى تفصيل المسند، غير أن الحرف (ثم) له قدرة نافذة إلى أغوار النص، وفى هذا يشير الزمخشرى من خلال وقوفع مع قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ [الفرقان ٤٥ - ٤٦].

يقول: وفى هذا القبض اليسير شيئًا بعد شيء من المنافع ما لا يعد ولا يحصى، ولو قبض دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعًا[١].

فيظهر من السياق المد فى لطف ورفق والقبض فى حركة ناعمة لينة (قبضًا يسيرًا).

ويقول تعالى: ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ [الزخرف ١٢ - ١٣].

فتأتى (ثم) كما فى هذا الموضوع لتفيد التفاوت فى الفضل وتراخى المراتب فى الفضل أو أقوى درجة فى الشدة ليكون المعطوف أظهر شأنًا، وقد كان مقتضى السياق أن يعطف ذكر النعمة بالفاء فى الآية الكريمة (لأن ذكر النعمة ضرب من الشكر، فيجب أن يعقب حدوث النعمة والانتفاع بها، كما نقول أعطيته فشكر، ولا نقول: أعطيته ثم شكر، لكن العدول إلى حرف التراخى هنا وراءه نكتة لطيفة، هى

---

(١) الزمخشرى – الكشاف – ٣ / ٩٤.

الإيماء إلى أن شكر النعمة عند الله أعظم من نفسها)[١].

ومثال ما جاء فى دلالة (ثم) على التفاوت فى الشدة، قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام ٨].

إن التراخى الزمنى بين عدم الأنظار وإنزال الملك غير ممكن، لأن مدلول عدم الإنظار نفى للتراخى، فلابد من حمله على التراخى الرتبى، وبه تصير المفاجأة بالعذاب لونا آخر من التعذيب أشد وأقسى من القضاء بالعذاب، وهو فى مجال التهديد أقسى إيجاعًا مما لو دخلت الفاء المناسبة لعدم الإنظار[٢].

وجاء العطف ب (ثم) فى موضع آخر بدلالة آخرى فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح ٨ - ٩].

فليس من الممكن أن تفيد (ثم) هنا تراخى الزمن فى الدعوة، مع نهوض نوح عليه السلام بمهامها وأعبائها، ولكنها جاءت هنا دون غيرها لتهمس فى النفس بمعنى رائق وظل لطيف فى كيفية تبليغ الدعوة وترقب الناس وأحوالهم، فقد ارتقى نوح فى شكواه واعتذاره (بأن دعوته كانت مختلفة الحالات فى القول من جهر وأسرار، فعطف الكلام بـ (ثم) التى تفيد فى عطفها الجمل أن مضمون الجملة المعطوفة أهم من مضمون المعطوف عليه، لأن اختلاف كيفية الدعوة الصق بالدعوة من أوقات إلقائها، لأن الحالة أشد ملابسة بصاحبها من ملابسة زمانه، وارتقى فذكر أنه جمع بين الجهر والاسرار لأن الجمع بين الحالتين أقوى فى الدعوة وأغلظ من إفراد إحداهما،

---

(١) د. محمد الخضرى – من أسرار حروف العطف فى الذكر الحكيم "الفاء، ثم" – ط ١ – مكتبة وهبة – ص ٢٣٢.

(٢) السابق – ص ٢٣٢.

وقوله: (أعلنت لهم وأسررت لهم) موزعة على مختلف الناس)[١].

التَّصْوِيرُ الصَّوْتِيُّ لِلْكَلِمَةِ

تحمّل الكلمة فى طياتها دلالات صوتية من شأنها أن تصور الحدث وملابساته تصويرًا دقيقا، فيساعد ذلك على إبراز الموقف بجزئياته وظلاله فلو وقفنا مثلا- عند كلمة(خَرَّ)، فنجدها قد وردت فى آيات عديدة من القرآن الكريم، ولها دلالات متباين كلما تغير السياق.

يقول تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى﴾[الأعراف١٤٣] ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل ٢٦]

ويقول تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[الحج ٣١] فقد مثلت كلمة (خَرَّ) فى الآيات السابقة مشهدا صوتيا صاخبا شديد الوقع على النفس، فكان من أثره – فى الآية الأولى – أن صعق موسى – عليه السلام فسقط على الأرض فى سرعة وشدة – "وصعق الإنسان صعقا وصعقا فهو صعيق غشى عليه وذهب عقله من صوت يسمعه كالهَدَّة الشديدة".[٢]

وقد مثّلت كلمة (خَرّ) فى الآية الثانية هول الموقف وشدته، فهو مشهد حسى يظهر فيه ضرب البنيان من أسفل فيخر من أعلى فينهار بثقله على رؤوسهم وقوله (من فوقهم) بعد قوله تعالىٰ (السقف) وهو لا يكون إلا فوقهم لتجسيد المشهد بأركانه

---

(١) ابن عاشور – التحرير والتنوير – الدار التونسية للنشر – الجماهيرية العربية الليبية – ج ٣٠ ص ١٩٦.

(٢) ابن منظور – لسان العرب – ط ١ – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٩٩٣ – مادة (صعق).

وأجزائه، فيظهر الصرح الشامخ وهو يسقط فى قوة ناشرا دويا من الصوت الشديد، قال بن الأثير: (ولذكر لفظه (فوقهم) فائدة لا توجد مع إسقاطها من هذا الكلام، وأنت تحس هذا من نفسك، فإنك إذا تلو هذه الآية تحس من نفسك، فإنك إذا تلوت هذه الآية يخيل إليك أن سقفا خر على هؤلاء من فوقهم، وحصل فى نفسك من الرعب مالا يحصل مع إسقاط تلك اللفظة). (١)

أما خرور المشرك فى الآية الثالثة، فقد مثلت كلمة (خر) فى اندفاع عنيف لأنه من مكان عال بعيد عن منال البشر، فهو (من السماء) وقد صاحب هذا السقوط الشديد صوت هائل، زاد من إبراز خرير الريح وزمجرتها الرعدية.

وقد ظهر جليا هذا المشهد الصاخب، معركة الخطف الدائرة بين الطيور فى السماء، فهى تتسابق إلى خطف الشرك، ومن يفلت من شيء فيكون مصيره الهلاك سحقا (سحيق).

وقد عكست الآية الكريمة بهذا التصوير البديع حال المشرك وضلاله وذلك عن طريق المقابلة بين طرفى المشهد (السماء) و(مكان سحيق)، وكأنها ترسم الضلال والتيه فى نفس المشرك، فهو يرى نفسه وعمله فى السماء فى أعلى علىين، فإذا به ينتهى إلى أسفل سافلين!!.

وإذا نظرنا إلى الآيات السابقة، وجدنا كلمة (خر) قد وردت فى سياق الآية الأولى مع كلمة (ربه) لأن الخرور كان فى مقام التربية والرعاية لموسى علّيه السلام، ولم يكن عذابا أو قضاء عليه.

أما فى الآيتين الأخيرتين فقد وردت كلمة(خر) فى سياق لفظ الجلالة (الله)

---

(١) المثل السائر ٢/١٣٣.

والحديث عن مكر الكافرين وشركهم، فكان الخرور عذابا وقضاء عليهم لأن العقيدة الصحيحة والتوحيد الخاص قد انتفيا من قلوبهم.

وقد تأتى كلمة (خر) لترسم مشهدا حسيا خاشعا مصحوبا بصوت المناجاة والتضرع والإنابة، فيظهر الموقف الإيمانى بجلاله وروحانياته، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّه وخر راكعا وأناب﴾ [ص٢٤] ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾[يوسف١٠٠] ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة١٥] .

إنه خرور جسد روح الهوى وقوة الإندفاع إلى السجود، وهذا الخرور الحسى قد رسم فى الحقيقة خرور القلب والوجدان، فظهر أثره جليًا على الجوارح وقد تضافر نسيج السياق بما يحمل من لغة ليبرز ذلك المشهد حيا مجسدًا ففى الآية الأولى نجد حرف (الفاء) (فاستغفر) قد أفاد السرعة والتعقيب ليظهر هذا الموقف بما يحمله من إنابة وتضرع لله تعالى، فيظهر داود عليه السلام وقد انتبه من اختبار الله له، فيتحول سريعا إلى الاستغفار والخرور فكان الربط بالواو، وهنا يظهر هذا التناغم النفسى فى تلاحق سريع عن طريق الواو (وظن)، ثم الفاء (فاستغفر)، ثم الواو (وخر).

أما الآية الثانية فقد وردت فى سياق حرف الواو الذى عمل على دقة نقل مشهد رفع الأبوين إلى مشهد الخرور، وقام الطباق بين (رفع- خروا) بتتميم أجزاء المشهد.

وقد استغنى الفعل (خروا) فى الآية الثالثة عن الرابط لاعتماده على بديل قوى، عمل على تحقيق عنصرى السرعة والمفاجأة معا، ألا وهو (إذا)، وفى ذلك إظهار لشخصية المؤمنين فى استسلام تام لله تعالىٰ وعدم التردد فى الانقياد والخضوع وقد ظهر التناغم الصوتى والنفسى فى السياق من أجل إظهار هذا الخرور متكامل

الأركان والنبضات، وذلك فى التعبير بالحال (سجدا) ثم الانتقال إلى الجملة الفعلية (وسبحوا بحمد ربهم) ثم الإنتقال إلى الجملة الإسمية ﴿وهم لا يستكبرون﴾ والتعبير بلحال سجدا، لأجل إظهار حقيقة السجود وهو الخضوع والتذلل لله فى كل أحوال حياتهم، وهم فى ذلك يداومون التسبيح والحمد لله لا يفترون عنهما، بل إنهم لا ينتهون من ذكر إلا ويجددونه على الدوام ولذلك عبر بالجملة الفعلية، أما التعبير بالجملة الإسمية فى وصفهم بعدم الكبر، فذلك للدلالة على أنهم ثابتون على التواضع لا ينفكون عنه، ولا تنفك هذه الصفة عنهم، بل تظل ثابتة وملازمة لهم فى كل أحوال حياتهم.

ويشبه الجرس الصوتى لكلمة (خروا)، كلمة (خوار) وهو صوت الثور، ومن أصوات البقروالغنم والظباء والسهام – كما فى اللسان – وقد وردت هذه الكلمة، فى القرآن الكريم فى موضعين اثنين:

الأول: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف ١٤٨].

والموضع الثانى فى قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَى فَنَسِيَ. أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طـ٨٨-٨٩] فصوت العجل وخواره، قد رسم المشهد صوتيا وحسيا فى الآيتين وقد جاءت الآيتان بكلمة(جسدا) منصوبه على البدل، لبيان صورة العجل واستحضاره فى الأذهان، ومن المفسرين من قال بأنه صار عجلا بلحمه ودمه له خوار، ومنهم من لم يذهب هذا المذهب. والله تعالى أعلم.

وليست الآيتان من قبيل التكرار. ولكن جاءت آية الأعراف لإظهار جزء من المشهد، وهو بداية اتخاذ العجل وصدور الصوت، ولذلك ختمت الآية بقوله ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾، فلم يكن ذلك أول ظلمهم.

أما آية طه فجاءت لإظهار جزء آخر من ذلك المشهد، وهو إخراج العجل على اعتبارهم أنه إله يُعبد من دون الله بعد اتخاذه وصنعه، ولذلك جاء التبكيت هنا بقوله تعالى، (أفلا) ترتيبا على الفاء فى (فأخرج)، بينما لم تأت الفاء فى الآية الأولى لأنها – كما ذكرنا – كانت بداية المشهد.

صر

الصِّرُّ والصَّرَّةُ: شدة البرد، وريح صِرٌّ صَرْصَر: شديدة البرد، وقيل شديد الصوت، وصَرَّ يَصِرُّ صَرًّا وصريرا وصَرْصر، صوَّت وصاح أشد الصياح.(١)

وقد وردت هذه الكلمة فى سياقات عديدة فى القرآن الكريم تحمل دلالات مختلفة، يقول تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران ١١٧]

وقال تعالى عن عاد: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة ٦] وقال تعالى عن هلاك عاد أيضًا: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [فصلت ١٦]

وقال تعالى – أيضا – عن عاد: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾

---

(١) اللسان. مادة (صرر).

[القمر١٩] فقد تباينت السياقات فيما سبق بما تحمله من الصر (ريح فيها صر) - (بريح صرصر) - (ريحا صرصرا فى أيام نحسات) - (ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر) وهى ريح شديدة تطلق الصفير والصياح المصاحب للبرد الشديد. ففى الآية الأولى جعل الريح تحمل الصر فقال: (فيها)، لبيان حسرة الخاسرين بعد فرحتهم بهبوب الريح لتلقيح الثمر، فإذا بها تحمل فى طياتها الهلاك، وكذا شأن الضالين الذين ينفقون أموالهم بغية تحقيق آمالهم، فإذا بهم قد خسروا وهلكوا وهم يترقبون الربح والفوز.

أما الآيات الثلاثة الأخيرة فهى تتحدث عن هلاك عاد بالريح الصرصر وليس بالريح الصر، فالصر كما ذكرنا تخفى ما بداخلها، وكأنها مضرورة أى مربوطة - بإحكام لئلا تخرج ما فيها إلا عند الحاجة، أما هلاك عاد فكان بالريح الصرصر والكلمة بتكرار أحرفها توحى بشدة صوتها وكربها، ولكنه قال مرة: (بريح صرصر عاتية) بالجر والوصف وكأننا نرى الأشياء تجرى مع الريح كلما حدث هذا الدوى الصوتى فى الكسرة الطويلة للراء فى (ريح) ثم توالى الصوت المنون المجرور فى تلاحق (بريح صرصر عاتية) وهذا العذاب الصرصر يزيد هولا وفزعا إذا جاء على غرة، ولم يعلم المعذبون مصدره، وهذا المشهد قد أوحى به بناء الفعل للمجهول (فأُهلكوا).

وفى الآيتين الأخيرتين: (ريحا صرصرًا) بالنصب والتنوين المطلق ليناسب جو المشهد من إرسال الريح وإطلاقها عليهم، ولذلك صدرت الآيتان بقوله تعالى: (أرسلنا عليهم) وجاءت آية فصلت بالفاء: (فأرسلنا) دون آية القمر: (إنا أرسلنا) ومن الكلمات التى ترسم المشهد الصوتى - أيضا كلمة: (الصدع) وهو الشق فى الشيء الصلب كالزجاجة والحائط وغيرها - كما فى اللسان، وهذا التصدع لابد أن يصحبه دوى صوتى صاخب، وهذا الدوى الصوتى يختلف باختلاف السياق الوارد

فيه، وقد وردت هذه الكلمة فى القرآن الكريم فى مواضع عديدة منها: ﴿فاصْدَعْ بما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عن الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر ٩٥]

فالأمر للنبى ﷺ بأن يصدع بما يأمره الله (به) على تقدير محذوف للجار والمجرور، أى ما تؤمر به، والصدع بالدعوى يلزمها الجهر بها وقرع الحجة بالحجة وفى إيثار كلمة (فاصدع) على (فاجهر) مثلا لبيان أثر الدعوة الإسلامية فى إزالة الشرك وكأنه حائط يتصدع وينهار، أو ليل بهيم أسود حالك وفجر الدعوة يصدعه ويشقه ليزيله.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر ٢١]

فتحقق الرؤيا (لرأيته) بمصاحبة صوت التصدع (متصدعا) لتظهر صورة ذلك الجبل بشموخه وثباته فيرتجف فى تصدع وخرور، وقد أوحت كلمتا (خاشعا- خشية) بما بينهما من أصوات متشابهة بصوت شجى يوقظ الروح ويبعثها فى جو من التبتل والابتهال إلى الله، وكأنه تصدع بكائى فيه التضرع والإنابة.

وفى قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ. إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ [الطارق ١٢] فالأرض تتصدع أى تتشقق ليخرج منها النبات، وفى هذا آية للمتأمل فى النبات وعوده الرقيق الضعيف، كيف يشق الأرض فيصدعها ويخرج، وعلاقة تصدع الأرض بالقول الفصل علاقة قوية ذات دلالات بليغة إذا ربطنا بينهما وبين ما سبقها من آيات حيث يقول تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ. خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ. يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ. إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ. يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ. فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ. وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ. وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ. إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾. فسياق الآيات يتحدث عن قدرة الله تعالى فى خلق الإنسان، فقد خلقه من ذلك الماء الذى يتدفق فى داخله وهو سبحانه قادر على إرجاعه مرة

أخرى يوم البعث ثم كان القسم بالسماء صاحبة الرجع – المطر- ترجع رزق العباد كل عام، ولولا ذلك لهلكوا وهلكت مواشيهم، ثم القسم بالسماء و الأرض لحملها مصدر الحياة للإنسان من ماء وزرع بعد خلقه، ثم يأتى بعد ذلك المقسم عليه (إنه لقول فصل) بلتأكيد بـ (إن) و(اللام) لإفادة إنكار المخاطبين لهذا القول الحق فالعلاقة – إذن- علاقة ترابطية، بداية من الحديث عن خلق الإنسان ضعيفا وبعثه ضعيفا لا يستطيع دفع العذاب عن نفسه، إلى القسم بأسباب رزقه ووسائل حفظ حياته، فكيف بمن هذا شانه أن ينكر حقيقة القرآن؟!.

وقد حملت الآيات سباقا بلاغيا تمثل فى الأسلوب الإنشائى (فلينظر) بلام الأمر دون فعل الأمر المباشر للتأكيد والتمكين وليكون نظر التأمل مستمرا ومتجددا ثم الإبهام والتوضيح فى قوله: ﴿مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾. فقوله (مما خلق) على الاستفهام والإبهام يناسب الأمر بالنظر فى مطلع الآية الكريمة، فيتحرك الوعى والإدراك لتلقف الفكرة فى فهم وثبات.

أما تشابه الأطراف فقد ظهر فى ختام الآية بقوله: (خلق) وهو ما بدأت به الآية التى تليها ﴿خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ﴾.

الكلمة الصوتية فى مشاهد القيامة والنار

كان من طبيعة هذه المشاهد أن تشتمل على كلمات ذات جرس عال وإيقاع عنيف لما تحتوى عليه هذه المشاهد من فزع وهول وعذاب يبرز في صراخ أهله وببكائهم وعويلهم، يقول تعالىٰ: ﴿فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمصرخكم وما أنتم بمصرخى﴾ [إبراهيم ٢٢]

فهنا تظهر اللوحة الصوتية بما فيها من صراخ متداخل بين الشيطان وأتباعه، فلا يستطيع أحدهما أن يغيث الآخر ويذهب سبب صراخه. وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر ٣٧] فقوله: (يصطرخون) غير(يصرخون)، فالأولى ذات جرس قوى غليظ بما اشتملت عليه من أصوات الصاد مع الخاء، ثم دخول حرف الطاء بينهما قاطعا الإيقاع المتعالىٰ الصادر من الصراخ، وكأنها حشرجة أحبالهم الصوتية فى حناجرهم ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ فالاصطراخ يرتفع من حناجرهم مختلطا بالدعاء (ربنا) وكانت إجابتهم عن طريق الاستفهام التوبيخى: (أولم نعمركم)، والأمر (فذوقوا) أى فيقال لهم: (أولم نعمركم) فيقولون: بلى، فيقال لهم: فيقال لهم (فذوقوا)، وهذا القول وجوابه محذوف للتحقير من شأنهم و(الدع) الدفع فى الظهر بعنف فيصدر المدفوع صوتا مرجفا، ولم يأت (الدع) فى القرآن الكريم إلا فى ثلاثة مواقف كلها تحمل عنف الموقف وشدته، يقول تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور ١٣]

(يدعون- دعا) فصياغة الكلمة وتوكيدها بالمصدر يوحى بطبيعة المشهد الصوتي والحركي، فيتمثل مشهد المدفوعين إلى جهنم، وهم يضربون بقوة في ظهورهم، فترتجف صدورهم محدثة صوتا عنيفا يغلب على ظهوره حرف العين وفى موضع آخر يقول الله تعالىٰ: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ. فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ [الماعون٢] ورجع الصوت في ظهر اليتيم، يظهر أثر ما يلقاه من ألم معنوي وانكسار نفسي من جراء الدفع، أو الزجر أو النهر، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ. وَجُنُودُ إِبْلِيسَ

أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء ٩٤]

(كبكبوا) يحدث جرسها صوت الحركة التي تتم بها، ومن الأوصاف التي اشتقها القرآن ليوم القيامة "الصاخة" "الطامة" والصاخة لفظة تكاد تخرق صماخ الأذن في ثقلها وعنف جرسها، وشقه للهواء شقا، حتى يصل إلى الأذن صاخا ملحا، والطامة كلمة ذات دوى وطنين تخيل إليك بجرسها المدوي أنها تطم وتعم، كالطوفان يغمر كل شيء ويطويه.

وقد يشترك الجرس والظل في لفظ واحد مثل: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ فلفظ الدع يصور مدلوله بجرسه وظله جميعا، ومما يلاحظ هنا أن الدع هو الدفع بالظهور بعنف، وهذا الدفع فى كثير من الأحيان يجعل المدفوع يخرج صوتا غير إرادى فيه عين ساكنة هكذا "أع" وهو فى جرسه أقرب ما يكون إلى جرس "الدع"[1] ويشتد الصوت الصادر من النفخ فى الصور حتى يصعق من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله: يقول تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر ٦٨]

ويبلغ الإعجاز الصوتى مبلغه عندما يكون سببا فى الصعق والموت أولا، ثم هو نفسه يكون سببا فى البعث والحياة بعد الموت وكذا صوت النقر فى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ. فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [المدثر٨-٩]وكذا عنف جرس كلمة (الصاخة) و(الحاقة) بما فيهما من صياغة وحرف المد والتضعيف وكلمة(الطامة) فى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ [النازعات ٣٤]

---

(١) سيد قطب - التصوير الفنى فى القرآن - ط ١٤ - دار الشروق - بيروت - ١٩٩٣ - ص ٩٣.

أى الحادثة أو الوقعة التى تطم "أى تعلو وتغلب بمعنى تفوق أمثالها من نوعها بحيث يقل مثلها فى نوعها، مأخوذ من طم الماء إذا غمر الأشياء، وهذا الوصف يؤذن بالشدة والهول إذ لا يقال مثله إلا فى الأمور المهولة، ثم بولغ فى تشخيص هولها بأن وصفت بـ الكبرى" فكان هذا أصرح الكلمات لتصوير ما يقارن هذه الحادثة من الأهوال.(١)

ونكاد نرى الأرض وهى تدل من هول الصوت فى قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر٢١-٢٣]

فتكرر الدك ثلاث مرات، فأحدث إيقاعا قويا، ولا سيما تكراره متلاحقا كتلاحق الصوت المصاحب لانهيار الأرض ودكها (وجاء الفعل (جئ) مبنيا للمجهول لتسليط المشهد على المجئ به وهى جهنم – عياذا بالله – فيؤتى بها فيزداد المشهد رجفة وخوفا.

وتأتى كلمات صوتية شديدة الإيقاع لترسم جو القيامة فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ. لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ وكذا صوت القرع يظهره حرف القاف مع العين، فيقرع النفوس والقلوب قبل الآذان ﴿الْقَارِعَةُ. مَا الْقَارِعَةُ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ فكيف إذا تكرر ذلك اللفظ الغليظ ثلاث مرات فى سياق الاستفهام التهويلى ؟!

وتأتى الكلمة الصوتية بجرسها العنيف الصاخب لتناسب الموضوع الذى سيقت فيه: كقوله تعالى ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا. فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا. فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا.

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٩٠.

فوَسَطْن به جَمْعًا . إنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّه لَكَنُودٌ﴾ فالخيل تضج: تصيح وتقدح: تضرب الأرض بأرجلها فيتطاير الشرر من تحت أقدامها، وتثير النقع – التراب و الغبار – فى جو المكان. فهو جو مضطرب صاخب وقد ناسبه هذه الكلمات ذات الإيقاع السريع والجرس العالى، وهو جو يماثل اضطراب الكنود – الجحود – وانفطار فطرته واضطرابها.

وقد تأتى الكلمة لترسم صورة صوتية متكاملة لأهل العذاب فى النار يقول تعالىٰ: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ. يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ . وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج١٩-٢٠]

فيتداخل صوت تقطيع الثياب النيرانية، مع صوت صب الحميم فوق الرؤوس، مع صوت المقامع الحديدية، ليوحى ذلك كله بطبيعة المشهد الحافل بالأركان والألوان والحركات ويظهر فى المشهد موسيقى صاخبة مصدرها تناسب الكلمة وتلاحقها:(اختصموا- قطعت- يصب- يصهر- مقامع) وتظهر على الوجه الآخر الكلمة الصوتية الحانية، لتبرز مقام الرحمة والتكريم، وما أكثر ذلك فى القرآن الكريم. فمن ذلك قوله تعالىٰ ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ. فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ. وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات١٠٢-١٠٥]

(قال يا بنى – قال يا أبت– وناديناه) كلمات اشتملت على أصوات رقيقة حانية تحمل الرحمة و الشفقة، وكذلك قوله تعالىٰ ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾ [الفجر ٢٧- ٣٠]

وقد يأتي الإطار العام للمشهد – يحمل إيقاعا موسيقيا رقيقا لمناسبة الموضوع التي اشتملت عليه السورة – كقوله تعالىٰ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ. وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾ [الحج٢٣-٢٤] فالإيقاع السائد في ذلك المشهد العظيم إيقاع ترتيب الحركات والنغمات هادئ الجرس شجى الصوت: (آمنوا – الصالحات- الأنهار- يحلون – ذهب – لؤلؤا – حرير – وهدوا) فهى كلمات لينة سلسة، كأنه مشتقة من سلاسة الأنهار ونعومة الحرير وكقوله تعالىٰ فى سورة الضحى ﴿ وَالضُّحَى. وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى. مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى. وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى. وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى. أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى. وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى. ﴾ لقد أطلق التعبير جوا من الحنان اللطيف، والرحمة الوديعة تنسرب كلها من خلال النظم اللطيف للعبارة، الرقيق اللفظ، ومن هذه الموسيقى السارية فى التعبير، الموسيقى الوئيدة الخطوات، الرقيقة الأصداء، فلما أراد إطار لهذا الحنان اللطيف، جعل الإطار من الضحى الرائق، ومن الليل الساجى، أصفى آنيْن من أونة الليل والنهار، وأشفّ آنيْن تسرى فيهما التأملات، وساقهما فى اللفظ المناسب.[1]

(١) التصوير الفنى فى القرآن ص ١٢٥ - ١٢٦.

الفَصْلُ الخامس

إعجاز الوصف

الفَصْلُ الخَامِسُ: إعجَازُ الوَصْفِ

إذا كان الوصف معدودًا من التوابع إلا أنه يقوم بأداء وظيفة حيوية لإبراز المعني قويًا وواضحًا.والوصف لا يأتي إلا بكلمة مناسبة يقتضيها السياق، وهو حينئذٍ لا يعدد ثانويًا أو فضله من فضلات الجمل، وهذا يظهر جليًا في سياق القرآن حيث نجد الكلمة الواصفة قد تبوأت مكان الإعجاز في مقامها، فالوصف بالإحسان له موضع غير موضع الوصف بالإيمان أو التقوي أو العلم أو التعقل، وكلها من مواضيع الحمد والتعظيم، والوصف بالنفاق له موضع مغاير للوصف بالكفر أو الضلال أو نحو ذلك، وكلها من مواضع الذم وأغراض التحقير، وكذلك الوصف بغرض البيان أو التوكيد والتخصيص ونحوه له مواضعه التي يحددها السياق ويبرزها المقام، وهو ما نبينه في هذه الوقفة بعد الاستعانة بالله.

الوَعِيدُ وَالتَّهْوِيلُ

تأتي كلمة العذاب في القرآن الكريم لتبين شدة عقاب أهل النار وتهويله، وهذه الكلمة قد تأتي مضافة مثل: (عذاب الخلد) يونس (٥٢)، ومثل (عذاب ربك) (الإسراء ٥٧) ومثل: (عذاب الله) (إبراهيم ٢١)وقد تأتي كلمة العذاب مطلقة من كل قيد، وكلها تجمع الوعيد والتهويل عن طريق تعريفها بأل، مثل كلمة العذاب موصوفة بصفات مختلفة، كقوله تعالىٰ في وصف العذاب بالعقيم، وهو الوصف الوحيد في القرآن الكريم كله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج٥٥]

فالوصف جاء لليوم (يوم عقيم) وأضيف العذاب إلي اليوم، وهذا تركيب يفيد مزيدًا من التهويل يبرز هول الساعة وإتيانها فجأة (تأتيهم الساعة بغتة)، فالجمع بين الساعة والعذاب في اليوم [١] يبرز المشهد في صورة عقيمة، لا تنتج أي خير لأهل العذاب، و(عقيم) علي الاستعارة " والاستعارة أبلغ لأنه قد دل علي أن ذلك اليوم فيهما لا خير بعده للمعذبين، فقيل يوم عقيم، أي لا ينتج خيرًا، ومعنى الهلاك فيهما إلا أن أحد الهلاكين أعظم [٢] "

وقد ورد الوصف بكلمة (العقيم) ثلاث مرات فى القرآن الكريم، الأولى في سورة(الحج) [الموضع السابق] والثانية في سورة(الزاريات) في قوله تعالىٰ (وقالت عجوز عقيم) [الآية ٢٩] ويجوز أن تكون (عقيم) خبرًا ثانيا، والموضع الثالث فى قوله تعالىٰ: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات٤١]

(العقيم) " مستعار للريح، وحقيقته ريح لا يأتى بها سحاب غيث والاستعارة أبلغ لأن حال العقيم أظهر من حال الريح التى لا تأتى بمطر، لأن ما لا يقع من أجل حال منا فيه أوكد مما يقع من غير منافيه وأظهر [٣].

ويقول تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ

---

(١) هو يوم القيامة وقد يشمل يوم بدر - أيضًا - على اختلاف المفسرين.

(٢) الرمانى - النكت فى إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن للرمانى والخطابى وعبد القاهر الجرجانى - تحقيق محمد خلف الله و د/ محمد زغلول سلام - ط ٤ - دار المعارف بالقاهرة ١٩٩١ - ص ٨٩).

(٣) نفسه ص ٩٣ (وقد جاءت كلمة العقيم فى موضع رابع وأخير منصوبة على المفعولية وذلك فى سورة الشورى الآية رقم ٥٠.

الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ. يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ. فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة ٦-١٠]

فقد جاء في السياق صفة العظمة للعذاب مع الكافرين[١] فيقول تعالىٰ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ﴾ واستخدم صفة الألم للعذاب مع المنافقين، فيقول جل شأنه: ﴿وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقد تفننت الآية الكريمة فى ذلك فى غير موضع..

فأحيانا يقول تعالىٰ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ﴾ [البقرة:٧] وأخرى يقول تعالىٰ: ﴿وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة ١٠] وثالثة يقول تعالىٰ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ ورابعة يقول تعالىٰ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران ١٧٨]

وهى مراتب وأحوال لأهل النار – عافانا الله تعالىٰ – فلأنهم سارعوا إلى المعاصى والجحود، فلهم عذاب عظيم، فالمسارعة تكون لأمر هائل وهذا العذاب هائل شديد، يأتى عليهم كما تأتى النار على الحطب، وهو يصيبهم بالألم الموجع لأنهم خدعوا أنفسهم واشتروا الكفر بالإيمان، والمخدوع أو المشترى المغبون يتألم، ثم هم مع ذلك فى عذاب يهينهم ويذلهم، وهم الذين طلبوا العزة والكرامة.[٢]

وجاء وصف العذاب بـ (مقيم) فى قوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة ٣٧] فنفى الخروج المؤكد بالباء فى قوله: ﴿وما هم بخارجين منها﴾ استجلب الوصف بالإقامة لأن نفى الخروج يعنى الإقامة، فالوصف

---

(١) د. محمد موسى – التنكير وأثره البلاغى فى القرآن الكريم – ط ١ – مطبعة الأمل – المنصورة – ٢٠٠٠ – ص ٨٢.

(٢) محمد رشيد رضا – تفسير المنار – ط ٤ – دار المنار – القاهرة – ١٩٥٤ – ٢٥٣/٤.

محمول على ما سبق مؤكد له.

وجاء وصف العذاب بـ (كبير) فى قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[هود٣]

قوله تعالىٰ: (عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ) هو يوم القيامة، وصف بالكبر كما وصف بالعظم والثقل. وبين عذاب اليوم الكبير بأن مرجعهم إلى من هو قادر على كل شىء، فكان قادرا على أشد ما أراد من عذابهم لا يعجزه[1]. وجاء وصفه بـ قريب فى نفس السورة: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود٦٤]

فجاء وصف (عذاب قريب) هنا حملا على ما سبق وعلى ما لحق – والله تعالىٰ أعلم – مما سبق كان فى قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود٦١] فأخبر أنه – سبحانه قريب الرحمة، مجيب الدعاء فكان فى مقابلة ذلك أنه قريب العذاب، وهذا يرد كثيرا فى سياق القرآن الكريم، فيأتى الترغيب والترهيب معا، ويذكر نعيم أهل الجنة وعذاب اهل النار وكان اللاحق لقوله: (عذاب قريب) قوله: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[هود ٦٥] فوصف العذاب بالقريب، لشدة قرب وقوعه، فقد وقع عليهم بعد ثلاثة أيام، وقيل عقروها يوم الأربعاء وهلكوا يوم السبت.

وجاء الوصف بـ (محيط) فى قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ

---

(١) الكشاف ٢/٣٧٨.

وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾[هود ٨٤] فهذه الأوصاف السابقة جميعا إذا ضمت إلى بعضها ألفت مشهدا موحدا يضم أجزاء مختلفة وجوانب عديدة فالعذاب – عياذا بالله – عظيم وشديد وأليم ومهين ومحيط فهو مراتب وأحوال

وقال الزمخشرى: (يوم محيط) مهلك من قوله تعالىٰ (وأحيط بثمره)[الكهف ٤٢] وأصله من إحاطة العدو فإن قلت: وصف العذاب بالإحاطة أبلغ أم وصف اليوم بها ؟ قلت: بل وصف اليوم بها لأن اليوم ما زال يشتمل على الحوادث، فإذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذب ما أشتمل عليه منه كما إذا أحاط بنعيمه[1].

وجاء وصف العذاب بـ (واصب) في قوله تعالىٰ: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾[الصافات٧-١٠] ووصف العذاب بالواصب هنا الوصف الوحيد في القرآن كله وهو عذاب الآخرة بالشياطين، يؤكد ذلك تقديم شبه الجملة (لهم) أي لهم خصوصا " وهو عذاب لا ينقطع، وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن الواصب: الدائم وقال السدى رأبو صالح والكلبى: هو المرجع الذي يصل إلى القلب، مأخوذ من الوصب وهو المرض. (شهاب ثاقب): نجم مضئ فيحرقه فيلقى إلى إخوانه ما خطفه، وأصل الثقوب: الإضاءة[2].

وجاء وصف العذاب بـ(غليظ) فى قوله تعالىٰ ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ

---

(١) الكشاف ٤١٧/٢.

(٢) فتح القدير ٥١١/٤.

عَرِيضٍ﴾ [فصلت٥٠-٥١]

جاء وصف العذاب بالغليظ هنا لمناسبة قوله (ولنزيقنهم) وقد ورد في القرآن الكريم أن الكافر يذوق العذاب بجلده، يقول تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء ٥٦]

وفى الحديث الشريف بين النبي ﷺ أن جلد الكافر غليظ يقول: (إن غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعًا، وإن ضرسه مثل أحد، وإن مجلسه من جهنم كما بين مكة والمدينة "[1]، فجاء وصف (غليظ) للعذب ليناسب غلظ هذه الجلود، وهذا من إعجاز الوصف القرآني في توافق الآيات مع بعضها، ومع كلام النبي ﷺ.

وجاء وصف النار بـ(الموقدة) في قوله تعالي: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ. الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ. إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ. فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة ٦-٩]

فجاء وصف النار بالموقدة مع إضافتها إلي لفظ الجلالة (الله) فتزداد تهويلًا علي تهويل، وربما يكون الوصف بالاشتعال هنا (الموقدة) ليبرز حقيقة أمر ذلك الذي منع ماله عن الصدقة، فهو لا يدخر لنفسه مالا – كما يعتقد – وإنما يتحول المال إلي حطب اشتعال في نار الله الموقدة، ثم وصف أعمدتها بالممدة لمزيد من التهويل والوعيد.

ومن وصف الوعيد والتهويل، قوله تعالي: ﴿فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا

---

(١) أخرجه الترمذى عن ابى هريرة رضى الله عنه، وقال الترمذى حديث حسن صحيح غريب، وقال الألبانى: إسناده صحيح.

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ [هود ٨٢]

فوصف الحجارة بأنها من سجيل وأن السجل منضود والسجيل: الطين المتحجر بطبخ أو غيره، وقيل: هو شديد الصلب من الحجارة، و(منضود) أي: نضد بعضه فوق بعض[1]؛ وهذا الوصف يخرج الحجارة عن نوعيتها المعتادة للقوم.

ومن وصف الوعيد والتهويل، قوله تعالي: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه ١٢٤]

فوصف المعيشة بالضنكي والمرجح أن يفسر بعذاب القبر، وفيه الضيق والشقاء لهذا المعرض، وهو الذي طلب بإعراضه عن ذكر الله السعادة والسعة، فكان الجزاء من جنس العمل.

البَيَانُ وَالتَّوْكِيدُ

قد تأتي الصفة لتؤكد حقيقة من الحقائق، أو لتبين أمرًا عرض في سياق القرآن فيتحدد بعينة في الذهن فلا ينصرف إلي غيره، فيعيش القارئ طبيعة المشهد في حضور وحيوية، ومن ذلك قوله تعالي: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة ٣١]

فوصف (إلهًا)بـ (واحد) ليثبت الألوهية ويثبت الوحدانية، وهو في مقام تأكيد التوحيد وبيان العقيدة الصحيحة، وقد جاء الوصف في سياق أسلوب القصر المقيد للحصر والتوكيد – أيضًا – (وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدًا)، ووصف المسيح بـ

(١) فتح القدير ٢/٧١٧.

(ابن مريم) للتأكيد علي عبوديته، وهو يذكر كثيرًا في القرآن بذلك الوصف.[١]

وكثيرًا ما يأتي هذا الوصف التأكيدي في مقام الحديث عن الشرك والمشركين والكافرين، ومن ذلك قوله تعالي: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [النحل ٥١]

فالمفرد والمثني معدودان، لا يحتاجان إلي دلالة علي عددها، وإنما ما زاد عن الاثنين فهو يحتاج إلي بيان في العدد، فأقول: عندي كتب سبعة فتحدد بذلك عدد الكتب. قال الزمخشري: إن قلت ما فائدة قوله (اثنين) مع إغناء التثنية عن ذلك ؟ قلت: الاسم الحامل لمعني الإفراد والتثنية دال علي شيئين: علي الجنسية والعدد المخصوص، فإذا أريدت الدلالة علي أن المعني به منهما،والذي يساق إليه الحديث هو العدد شفع بما يؤكده، فدل به علي لم يحسن، وخيل أنك تثبت الإلهية لا الوحدانية.[٢]

ومن ذلك – أيضًا ما ذكر في مقام الوحي والتبليغ في وقوله تعالي: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء ٨-١٠]

وقد يأتي الوصف بالعدد واحد لبيان التعجب والسخرية، كما في قوله تعالي: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص٥]

---

(١) قد يأتى فى بعض المواضع غير موصوف، لاستغناء السياق عن ذلك الوصف بدلالته على عبودية عيسى [عليه السلام] كقوله تعالى: (ولما جاء عيسى بالبينات...) ولم يقل (ابن مريم) لأنه قال بعدها (إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه) [الزخرف ٦٢ -٦٣]، وكقوله تعاى: (إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ...) [آل عمران ٥٥]، ولم يقل: (ابن مريم) لدلالة السياق على عبوديته فى قوله تعالى: (متوفيك) فكيف يكون إلهًا وقد تُوفى؟!.. وكقوله تعالى: (وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم) [آل عمران ٨٤] فذكر عيسى معدودا ضمن الأنبياء والمرسلين فأخذ حكمهم وصفتهم .

(٢) الكشاف ٢/٦١٠.

فقالوها علي سبيل النفي والإنكار والتعجب، وقد زاد من بيان ذلك تصدير الآية بالاستفهام الدال علي التعجب والإنكار أيضًا.

وقد جاء العدد (واحد) مبينا ومؤكدًا لحقيقة معينة في مواضع مختلفة من القرآن الكريم، منها: قوله تعالي: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد ٤]

فوصف القطع بأنها (متجاورات) يجاور بعضها في تلاصق وتلاحم، ثم تنتج ثمرًا مختلفًا علي الرغم من التجاور وعلي الرغم من شربها ماء (واحد)، فوصف الماء هنا بأنه واحد لبيان قدرة الله والدلالة عليها. وفي ختام الآية الكريمة بالوصف (يعقلون) ليتناسب بلاغيًا مع موضوع الآية التي تدعو إلي التفكير والتدبير في مظاهر قدرة الله، فيكون ذلك سبيلًا للإيمان.

أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ

الأمة: الدين[1] كما قال ابن قتيبة، ومنه: ﴿إنا وجدنا آباءنا علي أمة﴾ [الزخرف ٢٢] أي علي دين كأنه قال: إن هذا دينكم دين واحد لا خلاف بين الأمم المختلفة في التوحيد، ولا يخرج عن ذلك إلا الكفرة المشركون بالله، وقيل: إن هذه الشريعة التي بينتها لكم في كتابكم شريعة واحدة. وقيل: المعني: إن هذه ملتكم ملة واحدة، وهي

---

(١) قد تأتى (أمة) فى بعض المواضع بمعنى (جماعة) كقوله تعالى: (من اهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله) [آل عمران ١١٣]، وكقوله تعالى: (وإذا قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم) [الأعراف ١٦٤]، وقد تأتى (أمة) بمعنى (وقت) او (اجل) كقوله تعالى: (ولئن اخرنا عنهم العذاب إلى....

ملة الإسلام.[١]

وبناء علي ما تقدم، فإن وصف (أمة) بـ(واحدة) يأتي للتأكيد علي أن الدين واحد، ولهذا فإن هذا الوصف (واحدة) لكلمة (أمة) يأتي في سياق الحديث عن الفرقة في الدين واختلاف الكافرين علي دين الله، ومثال ذلك ما جاء في قوله تعالي: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس ١٩]

أي كانوا علي دين واحد، فتفرقوا إلي فرق وأحزاب وقوله تعالي: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ [الأنبياء ٩٢-٩٣]

فذكر وحدة الدين (أمة واحدة) في معرض الكلام عن القطع المتفرقة في الدين: (وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ). ومن ذلك – أيضًا – قوله تعالي: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ. فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون ٥٢-٥٣]

فقال في آية (الأنبياء) (فاعبدون) لأنه خطاب لسائر الخلق، أو للكفار فناسب أمرهم بالعبادة والتوحيد ودين الحق. وقال في (المؤمنون) (فاتقون) لأنه خطاب للرسل، أو للنبي ﷺ والمؤمنون فناسب الأمر بالتقوى وأما قوله (وتقطعوا) بالواو (في الأنبياء) لأن التقطع قد كان منهم قبل هذا القول لهم، وقوله: (فتقطعوا) بالفاء في (المؤمنون)، أي ظهر منهم التقطع بعد هذا القول، والمراد أممهم.[٢]

ومن المواضع التي ذكرت الأمة فيها موصوفة بـ (واحدة) للتأكيد علي وحدة الدين وتوحيد العقيدة في سياق الحديث عن الكافرين ما جاء في قوله تعالي: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ

---

(١) فتح القدير ٣/٥٨١.

(٢) أسرار التكرار في القرآن ص ١٤٣، وانظر – أيضًا – كشف المعاني ص ٢٥٨.

النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف ٣٣]ومما جاء موصوفا بالعدد واحد، قوله تعالىٰ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان٣٢]

فكلمة (جملة) ووصفها بالتضاد (واحدة) دل على تناقضهم مع الحق وتعنتهم فيما لا طائل من ورائه، لأن ما طلبوه لا يخرج القرآن عن كونه معجزا وهم قد طلبوا نزول القرآن دفعة واحدة لزعمهم أن الكتب السابقة نزلت هكذا، وقد كذبوا في ذلك وجهلوا حقيقة نزول الكتب.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص٢٣] فوصف النعجة بواحدة في سياق(تسع وتسعون نعجة) لإرادة بيان حالة الضعف والتأكيد على الظلم الواقع من جانب القائل وقد يأتي الوصف بالعدد واحد لبيان شدة الموقف وهوله، والتأكيد على عظمه، وذلك كما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة﴾[النساء١٠٢] فالتعبير بالمفعول المطلق (ميلة) وبينه بالوصف (واحدة) أبرز حقد الكافرين الدفين في نفوسهم ورغبتهم في شدة الانتقام، حتى تكون ميلة واحدة قاصمة. ومن هذا النوع أيضا- ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾[يس٢٩] ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس ٤٩] ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾[يس ٥٣]

فوصف الصيحة بأنها واحدة تدل على شدتها فلا يُحتاج إلى ثانية لكفاية الصيحة

الواحدة للقضاء على الخلق (آية ٢٩) أو في بعثهم آية(٥٣) وقد أتت كلها في سياق أسلوب التوكيد عن طريق النفي والاستثناء لقطع الطريق على المنكرين والمكذبين.

وقد يأتي التعبير عن البعث بعد الموت بالزجرة الواحدة لبيان شدتها وقوتها، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الصافات ١٩]

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ واحدة فإذا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات١٣]

وقد أجمع المفسرين على أنها النفخة الثانية، وقد جاء التعبير عن النفخة الثانية بالصيحة كما في آية [يس٥٣]، ولعل المراد بالزجرة الواحدة، أي الدفعة الواحد للخلائق ليساقوا إلى ارض المحشر، فتكون الصيحة شيئا والزجرة شيئا. والله تعالى أعلم.

ومن هذا الوصف – أيضا– ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾[الحاقة ١٣]﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾[الحاقة١٤] فالوصف بـ (واحدة) في النفخة والدكة يبين مدى شدتها وهولها وقد بنى الفعل للمجهول في كلا المشهدين، وكذا كل مشاهد القيامة، فما سر ظاهرة الاستغناء عن ذكر الفاعل في أحداث يوم القيامة، يهدينا البيان القرآني إلى أن أساليب البناء للمجهول، والمطاوعة والإسناد المجازى، تلتقي جميعا في الاستغناء عن ذكر الفاعل، وإن لكل أسلوب منها ملحظه البياني الخاص، يجلوه استقراء مواضعه في الكتاب المحكم...

اطراد هذه الظاهرة في موقف البعث والقيامة، ينبه إلى أسرار بيانه وراء ضوابط الصنعة البلاغية وإجراءات الإعراب الشكلية فبناء الفعل للمجهول،فيه تركيز الاهتمام على لحدث، بصرف النظر عن محدثه "[1].

---

(١) الإعجاز البياني للقرآن ص ٢٤٢.

وقد تأتي الصفة لبيان الشيء وتحديده بذاته، فتتميز بصورة حاضرة في الذهن، فلا ينصرف إلي غيره، وذلك كما جاء في قوله تعالي: ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ [التوبة ٣] فقد وصف الحج بالأكبر، لأن العمرة تسمى بالحج الأصغر، وقد يراد به يوم عرفة، لأنه إذا فات فات الحج، وقد يراد به يوم النحر، لأن ما يفعل فيه معظم أفعال الحج، فهو الحج الأكبر.(١)

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ [التحريم٨] فالوصف (نصوحا) حدد شروط التوبة حتى تقبل أى صادقة. ووصف الفلك المشحون ليبين مدى ازدحامه، فقال: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الصافات ١٤٠]

وبيّن نوع الشجرة التى أنبتت على نبى الله يونس عن طريق الوصف فقال: ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ(٢)﴾ [الصافات١٤٦] وقد يأتى الوصف الضعف وطلب الترحم والاستعطاف كما فى قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ [يوسف ٧٨]

وكقوله تعالى: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص٢٣]

وأتى الوصف لبيان الكرم، كما فى قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات٢٦] فقد يكون وصفه بحنيذ فى (هود) لبيان حالة إعداده وإنضاجه، فكان يشوى على الحجارة المحماة على النار ووصفة بـ (سمين) فى الذاريات لبيان حالته

---

(١) الكشاف ٢/٢٤٥.

(٢) هى شجرة القرع كما قال جمهور المفسرين وخصها بالذكر لأنها باردة الظل ولا يجتمع عندها الذباب كما تكون سريعة النبات. انظر (تيسير الكريم الرحمن ص ٧٧٧).

الصحية وبُعده عن الهزال وخلافه و الله أعلم. وقوله تعالىٰ فى وصف العجل بالجسد: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾ [الأعراف ١٤٨] وكذا فى سورة طه: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾ [الآية ٨٨] ويجوز أن ينتصب (جسدا) على البدلية وعلى الوصيفة، فتكون صفة العجل جسدا بمعنى الجثة فقط، قال ابن الأنبارى: ذكر الجسد دلالة على عدم الروح منه، وأن شخصه مثال وصورة، غير منضم إليها روح ولا نفس"[1] وجملة (له خوار) وقعت صفة لتبين هيئة من هيئات هذا العجل وهى هنا هيئة صوتية إذ له صياح من أثر دخول الريح فيه.

وقد قامت الصفة أيضا ببيان حالة القوم فى قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ [الكهف ٩٣]

﴿قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ فظهرت صفتهم فى عدم فهمهم لغة غيرهم، فهم لا يفهمون عن غيرهم ولا يفهمون غيرهم، لأنهم لا يعرفون غير لغة أنفسهم.[2]

وكثيرًا ما يأتى وصف السماء بالدنيا لتحديدها عن باقى السماوات، كما فى قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [الملك٥]

وتأتى الصفة – أيضا – لتبين منافع الشيء ومزيته، كما فى قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل ١٤] ففى وصف اللحم بأنه طريا بيان للمزيته الصحية وهضمه ثم بين صفة الحلية المستخرجة بـ

---

(١) فتح القدير ٢/٣٥٢.

(٢) نفسه ٣/٤٢٩.

(تلبسونها)، وقد وصف اللباس فى مواضع أخرى بقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الأعراف٢٦] فوصف خاصية اللباس بأنه (يوارى) السوءات ويستر العورات.

المَدْحُ وَالتَّعْظِيمُ

تختلف الصفة باختلاف الموصوف واختلاف المقام الذي ذكرت فيه، فقد جاء الوصف للفظ في مواضع عديدة يحمل دلالات مختلفة، فيقول تعالي: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[إبراهيم ٤٨]

فجاء الوصف بالوحدانية والقهر، وهو مناسب للمقام حيث تتحدث الآية عن القيامة وهولها وتبديل الأرض والسموات، وبروز الخلق لله، والوحدانية هنا وصف جليل أبلغ من غيره، فيه دلالة علي تفرد الخالق بملكه وتحكمه فيه دون منازع، وجاء وصف (القهار) لإبراز هول الموقف وبيان قدرة الله تعالىٰ علي تغيير كل شيء وإيجاد كل شيء.

وقد جاء نفس الوصف في نفس المشهد والموقف في آية أخري، حيث يقول تعالي: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر ١٦]

وفي موضع آخر جاء وصف مغاير اقتضاه السياق، يقول تعالي: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر ١]

فالمقام هنا يتحدث عن تنزيل الكتاب – القرآن الكريم، والمناسب لذلك: العزة والحكمة التي اقتضت التنزيل وما اشتمل عليه من حكم وإحكام، والإشارة إلي أثره

البالغ في معالجة حياة البشر في كافة نواحيها، وهو العزيز، أي القوي الذي لا يُغلب، فلا يُغلب كتابه ولا يضاهَي ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد جاء في غير موضع وصف لفظ الجلالة في سياق الحديث عن تنزيل الكتاب بصفات أخري، كقوله تعالي: ﴿حم. تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[غافر ١-٣]

فجمع هنا العلم إلي العزة، وبالغ فقال العليم، وهذه الصفة تحمل سببًا من أسباب تنزيل الكتاب، فهو – سبحانه- يعلم أحوال خلقه، ويعلم ما يصلحهم، وكل ذلك في الكتاب المنزل وأتي بصفات أخري: المغفرة والتوبة وشدة العقاب وطول التفضل، وموقع هذه الصفات في سياق الحديث عن الكتاب المنزل، فيه إشارة إلي أثر التمسك بالتنزيل والعمل به، فيشمل الترغيب (المغفرة والتوبة والتفضل) والترهيب (شديد العقاب) وقوله: (غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب) هي كالنعت للمعرفة إذا اعتبرنا إضافتها لفظية، " ولكنه يجوز أن تجعل إضافتها معنوية كما قال سيبويه: إن كل ما إضافته غير محضه –يجوز أن تجعل محضة، وتوصف به المعارف إلا الصفة المشبهة، وقال الزجاج: إن هذه الصفات الثلاث مخفوضة علي البدل وروي عنه أنه جعل غافر وقابل مخفوضين علي الوصف وشديد مخفوض علي البدل ".[1]

ويقول تعالىٰ واصفًا نفسه – سبحانه- بالرحمة: ﴿حم تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾[فصلت١-٢]، (الرحمن الرحيم) اسمان مشتقان من الرحمة علي طريقة المبالغة، ورحمن أشد مبالغة من رحيم. والرحمن من الصفات الغالبة لم يستعمل في غير

(١) فتح القدير للشوكانى ٤/ ٦٣١.

الله ﷻ.[١]

وقد يجمع بين الحكمة والعلم دون لفظ الجلالة في الصفة والموصوف في سياق الحديث عن القرآن الكريم، كقوله تعالي: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل٦].

وقد يأتي وصف لفظ الجلالة بكلمة رب العاملين، وقد جاءت في الكثير من المواضع كقوله تعالي: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة١]، والرب مصدر رب يرب، ثم جعل صفة كعدل وخصم، وأصله راب وجره على الصفة أو البدل،وقرئ بالنصب عل إضمار أعني، وقيل علي النداء، وقرئ بالرفع علي إضمار هو.[٢]

وقد جاء هذا الوصف برب العالمين مسبوقًا وملحوقًا بالرحمة في قوله: (الرحمن الرحيم) وهذا مناسب لافتتاح القرآن الكريم وبداية المصحف، وفي ذلك السياق جمع بين لفظ الجلالة ولفظ الربوبية، ليجمع بين التوحيد وترسيخ العقيدة وبين التربية والرعاية والعناية.

وقال فى موضع آخر: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام ٤٥]. فجاء الوصف برب العالمين تذكيرًا بالنعمة التي وقعت باستئصال شأفة الظالمين، ففي ذلك لطف من الله ورعاية بعباده وعناية بهم، ولذلك صدرت الجملة بالحمد، وهو ما لم يأت في مواضع أخري ذكر فيها (رب العالمين)، كقوله تعالي: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل ٤٤]، فالمقام مقام استسلام وإذعان لله، ففيه إصلاح العقيدة ولزوم

---

(١) نفسه ١/ ٨٠.

(٢) العكبرى - التبيان فى إعراب القرآن - ط ١ - المكتبة التوفيقية - القاهرة - ١٩٧٩ - ١/ ٥.

التوحيد فجاء لفظ الجلالة (الله)، وفيه إظهار الربوبية والتربية والتهذيب فجاء ذكر الرب وهذه بلاغة أسلوبية فيها إيثار علي: (وأسلمت مع سليمان لله) أو (وأسلمت مع سليمان لرب العاملين).

وقد يأتي الوصف للفظ الجلالة بـ (الملك الحق)، وذلك في موضعين من القرآن الكريم، الأول في قوله تعالي: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا. فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ.﴾ [طه ١١٣-١١٤]

والموضع الثاني في قوله تعالي: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ. فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون ١١٥-١١٦]

والوصف بالملك الحق يناسب مقام الحديث عن اليوم الحق، يوم القيامة وما فيه من وعيد نص عليه القرآن، فهذا كله حق، ولا يستطيعه إلا من أحكم ملكه وملك زمام خلقه وكونه، ولذلك جاء الوصف بالملك لأنه لا يملك هذا إلا الله، وهو الموصوف أيضًا بالحق.

وفى موضع آخر وصف (الله) بالملك القدوس العزيز الحكيم، وذلك في قوله تعالي: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ. هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة ١-٢]

(الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ). قرأ الجمهور بالجر في هذه الصفات علي أنها نعت لـ (الله)، وقيل: علي البدل، والأول أولي، و(الملك القدوس) أي الطاهر من

كل عيب المنزه عن كل نقص ".[1]

فناسب الوصف في الملك القدوس قوله في صدر الآية الكريمة (يسبح) وفيها أيضًا التنزيه لله عن الشريك والنقص، فأحيط لفظ الجلالة (لله) بهذا السابق،وذاك اللاحق، وجاء وصف العزيز ليزيل عن الأذهان حاجة الله في هذا التنزيه من أحد من خلقه، فهو عزيز بذاته وصفاته، وهو حكيم حكمة مطلقة هذا من ناحية، ومن ناحية أخري كانت هذه الصفات المجيدة تمهيدًا وتناسبًا مع ما يأتي بعدها، ألا وهي مهمة الرسول والكتاب المنزّل معه ولذلك جاءت ثلاث جمل متتابعة في موقع الصفة للرسول، وهي (يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة)، وهذه الحكمة مما اشتمل عليه الكتاب المنزل، وقد ناسب ذلك وصف الله تعالىٰ بالحكيم سابقًا.

وربما جاء وصف الله – تعالىٰ – باسم الموصول (الذي)، وذلك في مواضع عديدة، كقوله تعالي: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ. ﴾[الأعراف ٥٤]

وقوله تعالي: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ. ﴾ [الرعد ٢]

وقوله تعالي: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ. ﴾ [إبراهيم ٣٢].

وبالنظر الي اسم الموصوف (الذي) هنا، نجده قد جاء في مقام تعظيم الخالق في

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٥/ ٢٧٥.

مجالات تعجيزية وفيها بيان قدرة الله المطلقة، فتلين القلوب للإيمان به فكأنه قال: الله الذي خلق ورفع وأخرج الثمر وجعل الشمس والقمر، فهل يستطيع أحد أن يفعل ذلك، والله تعالىٰ أعلم.

وقد جاء الوصف برب العالمين في موضع آخر في سياق (تبارك الله)، يقول تعالي: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر ٦٤]

وفي موضع آخر في سياق (تبارك) أيضًا قال جل شأنه: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون ١٤]، ففي هذا الموضع من سورة المؤمنون توالت الآيات تتحدث عن خلق الله للإنسان ومراحل خلقه وتطوره من سلالة من طين ثم من نطفة ثم من علقة فناسب ذلك قوله: (أحسن الخالقين) يقول تعالي: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون ١٢-١٤]

أما في سورة غافر، فالآية تتحدث عن الربوبية من فضل الرعاية والعناية والنعم من قرار الأرض وبناء السماء وحسن التصوير والرزق من الطيبات، فناسب ذلك أن يقول: (رب العالمين).

وفي هذه السورة الكريمة – غافر – ختمت ثلاث آيات علي التوالي بقوله: (رب العالمين) وليس له في القرآن نظير، هذه الآية المذكورة سابقًا رقم (٦٤)، والآيتان بعدها في قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر ٦٥-٦٦]

وسبب التكرار – والله أعلم – هو: تأكيد ربوبية الله للعاملين علي أسماع الكفار جميعًا، لاسيما أهل التثليث ثلاث مرات.(١)

وَصْفُ القُرْآنِ الكَرِيمِ

قد تحمل الآيات ذكر القرآن بلفظ الكتاب أو بلفظ القرآن، ومن ثم يتغير الوصف تبعًا لتغير الكلمة وإذا جاءت كلمة الكتاب موصوفة، فإن أكثر الوصف يكون بكلمة (مبين)، كما في قوله تعالي: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الشعراء ٢]

﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل ١]

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [القصص ٢]

وجاء الجمع بين الكتاب والقرآن في آية واحدة، مع وصف القرآن بالمبين، وذلك في قوله تعالي: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر ١]

وقوله تعالي: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [يس ٦٩]

ولعل وصف الكتاب والقرآن بالمبين في هذه المواضع للدلالة علي بيانه ووضوحه الشامل لجميع آياته وسورة، ولذلك جاء في (الشعراء) في الآية الثالثة: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾. وفي هذا توبيخ للكافرين: إذ كيف يكفرون به مع وضوحه

---

(١) أسرار التكرار في القرآن ص ١٨٧.

وبيانه.

وفي النمل جاء في الآية الثانية ذكر الهداية بعد البيان والوضوح: ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وفي القصص جاء في الآية الثالثة وما تبعها ذكر نبأ موسى وفرعون: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: فمن دلائل بيانه وصدقه أنه يحكي أحداث الغيب الموغل في القدم، ومنه جحود فرعون علي الرغم من سطوع الحق، وفي آية يس جاء ذكر الشعراء قبلها، فقال: (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ) فجاء وصف القرآن بالمبين، ليقول لهم: إن هذا القرآن بين واضح بأنه ليس بشعر، وأنتم أعلم الناس بالشعر وفنونه وفي موضع آخر جاء وصف الكتاب بالمستبين لما في قوله تعالي: ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ [الصافات ١١٧]، وليس المراد بالكتاب هنا القرآن،وإنما التوراة، والضمير في (وآتيناهما) يعود علي موسي وهارون عليهما السلام.

وجاء وصف الكتاب بالحكيم في قوله تعالي: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ. أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس ١-٢]

ووصف الكتاب بالحكيم هنا، لإرشاد العقول الضالة إلي حكمة اختيار النبي ﷺ، فقد تعجبوا من أن يكون الرسول بشرًا، فلم يكن كلامهم حكيمًا ولا تفكيرهم متزنًا،وكأنه قال: كونوا حكماء وعقلاء في تفكيرهم، كيف تطلبون أن يكون الرسول ملك وأنتم بشر ؟!

وجاء وصف الكتاب بالحكيم في موضع آخر، في قوله تعالي: ﴿الم. تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ. هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان ١-٣]

ولعل السبب في ذلك – والله أعلم – أن هذه الآية الكريمة والوصف الحكيم للقرآن، وقد جاء بين خاتمة سورة الروم، وفيها بيان عن تكذيب الكافرين للقرآن وبين بداية سورة لقمان وفيها بيان أثر القرآن من هدى ورحمة للمحسنين كذلك – أيضًا – كان آخر ما ختمت به سورة الروم قوله تعالي: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾

فجاء وصف الكتاب بالحكيم في بداية سورة لقمان أبلغ ما يكون الوصف والتناسب مع خاتمة سورة الروم، لأن المعني: إن هؤلاء الكافرين " قد ضعف إيمانهم وقل يقينهم فخفت لذلك أحلامهم وقل صبرهم، وهذا يدل علي أن كل مؤمن موقن رزين العقل يسهل عليه الصبر، وكل ضعيف اليقين ضعيف العقل خفيفه فالعكس، فالأول بمنزلة اللب والآخر بمنزلة القشور والله المستعان ".[1]

وقد أتى وصف القرآن بالحكيم أيضًا في قوله: ﴿يس. وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس ١-٣]

ولعل صفة الحكمة قد جاءت هنا لتناسب سورة فاطر قبلها، حيث يقول تعالي: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا. وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ

(١) السعدى - تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان - دار الحديث - القاهرة - ٢٠٠٢٠ - ص ٦، ٧.

بَصِيرًا ﴾ [فاطر ٤٤-٤٥].

فالآيتان تحملان الحث علي التعقل والحكمة في النظر إلي عاقبة السابقين، وتثبت الآية الأخيرة حكمة الله تعالىٰ – في تصريف شئون خلقه، فهو – جل شأنه – لا يعاجلهم بالمؤاخذة، و إلا فنيت الخلائق، ولكن يؤخرهم إلي يوم البعث.

وقد تأتي كلمة (القرآن) في مواضع عديدة من الآيات الكريمة، ولكن بأوصاف أخري غير أوصاف الكتاب السابقين، كقوله تعالي: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر ٨٧]

جاء وصف القرآن هنا بالعظيم للفت الانتباه إلي ما اشتمل عليه القرآن من صفات الكمال والامتناع عن الشبيه أو التحريف، وهو أنسب وصف في هذا المقام لقوله في صدر الآية: (ولقد آتيناك)، ولأنه يتعرض بالكلام للذين أقسموا علي بطلانه، وجعلوه عضين، أي: أصنافًا، منهم من يقول سحر، ومنهم من يقول كهانة.

بينما جاء وصف القرآن في موضع آخر بوصف مغاير لما سبق، كما في قوله تعالي: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ. بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ. كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾[ص ١-٣]

فوصف القرآن هنا بـ (ذي الذكر) أي التذكير للعظة والاعتبار وهذا يناسب حال الكافرين، فقد استكبروا وامتنعوا فذكرهم القرآن بحال الأمم السابقة. (كم أهلكنا.)، فلما وقع عليهم الهلاك استغاثوا ولكن بعد فوات الأوان (ولات حين مناص).

وقد جاء وصف القرآن بالمجيد في قوله تعالي: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ. بَلْ عَجِبُوا أَن

جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ. أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ. قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق ١-٤]

وقوله تعالي: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ. وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ. بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج ١٩-٢٠]

فوصف القرآن بالمجيد يعني أنه لا يناله تحريف ولا تبديل، وهو مصون عن التغير، وفي هذا الوصف تناسب مع قوله تعالىٰ بعد ذلك: (وعندنا كتاب حفيظ) [ق ٤] وقوله: ﴿في لوح محفوظ﴾ [البروج ٢٢]، فوصف – أيضًا – الكتاب وهو اللوح بأنه حفيظ، ووصف اللوح بأنه محفوظ، فلا يتغير ولا يتبدل وقال الفخر الرازي: " هذا القرآن مجيد مصون عن التغير والتبدل، فلما حكم فيه بسعادة قوم وشقاوة قوم، وبتأذي قوم من قوم، وامتنع تغيره وتبدله، فوجب الرضا به، ولا شك أن هذا من أعظم موجبات التسلية ".(١)

وقد جمعت آية الواقعة بين القرآن والكتاب في قوله تعالي: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ. لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة ٧٥-٧٩]

القسم بمواقع النجوم والمقسم عليه القرآن الكريم، والنجوم بمواقعها العالية التي لا تدرك، تلفت الانتباه إلي علو قدر القرآن وعظمته التي لا يدرك كنهها وهذا العلو والقدر الرفيع يشير إلي علوه ورفعته علي جميع الكتب، ويشير إلي علو ما فيه من أخلاق، ويشير إلي علو منزلة صاحب القرآن، " وحكي الواحدي عن أهل المعاني:

---

(١) التفسير الكبير ١١/ ١١٦.

أن وصف القرآن بالكريم، لأن من شأنه أن يعطي الخير الكثير بالدلائل التي تؤدي إلي الحق في الدين. قال الأزهري: الكريم اسم جامع لما يحمد، والقرآن يحمد لما فيه من الهدي والبيان والعلم والحكمة. (في كتاب مكنون) أي مستور مصون، وقيل: محفوظ عن الباطل، وهو اللوح المحفوظ ".[١]

أما وصف القرآن بالعربي، فقد جاء في مواضع عديدة، كقوله تعالي: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف ٢]

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت ٣]

هذا الوصف مدح للعربية لأنها شرفت بنزول القرآن الكريم بها، وليس مدح للقرآن بأنه عربي، وهو وصف – أيضًا – يفيد مزيدًا من البيان والتوكيد. والله أعلم.

وَصْفُ الجَنَّةِ

جاء الوصف في القرآن الكريم في مواضع كثيرة بهدف مدح الموصوف وتفخيمه أو لإظهار مزية عظيمة غالبة فيه، وقد جاء وصف الجنة في الكثير من الآيات القرآنية لنفس الغرض.

علي أن كلمة (الجنة) بصيغة المفرد قد جاءت موصوفة في اثني عشر موضعًا من جملة خمسة وستين موضعًا، في حين أن كلمة (الجنات) بصيغة الجمع قد جاءت موصوفة في سبعة وثلاثين موضعًا من جملة تسعة وستين موضعًا.

ولعل السبب في ذلك أن ذكر الجنة بصيغة الإفراد لإرادة عمومها ومطلقها وإجمالها وهي كثيرًا ما تذكر مفردة في مقام المقابلة بينها وبين النار.

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٥/ ٢١٣.

وقد جاءت كلمة (الجنة) موصوفة في أربعة مواضع ويراد بها الحديقة أو البستان، وليس جنة الآخرة، وهذه المواضع هي:

قولُه تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ. كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة ٢٦٥-٢٦٦]

فالجنة في الموضعين المذكورين هما من قبيل المثل الذي يضربه الله- تعالىٰ - للمنفق الذي يبتغي مرضات الله (جنة بربوة)، والمنفق الذي يمن ويؤذي بصدقته.

ومن بلاغة وصف الجنة الأولى أنها جاءت بشبه الجملة (بربوة) وهي المكان المرتفع، لتكون أنقي للهواء وأغزر للماء، وفي ذلك تخييل حسي يرتفع بالمنفق إلي مكان عال يتمتع فيه بطيب الحياة، ثم يجد العيش الرغد (أكلها ضعفين) أما الجنة الأخرى، فهي مَثَل ضربه الله لذلك الذي أصابته الحسرة والفجيعة لاحتراق جنته بعد ازدهارها وينعها في الوقت الذي كبرت فيه سنه وضعفت ذريته وقد توالت الكلمات في رسم تلك الصورة بتدرج يوحي بمدي تلك الفجيعة.. الكِبَرى - ذرية ضعفاء، ثم يعلو إيقاع الكلمة وتشتد الوطأة بقوله: (إعصار ثم(نار) ثم (فاحترقت)، وهذا كله بعد أن كان النخيل والأعناب والأنهار الجارية والثمار الشاملة لكافة الأنواع.

ووصف جنة الدنيا بالنخيل والأعناب وهو وصف جار في القرآن الكريم حتى في مجيء كلمة (الجنات) مجموعة وذلك لمعايشة العرب لهذه الألوان ومعرفتهم بها

وأهميتها في حياتهم كقوله تعالىٰ ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾ [الأنعام ٩٩]

وقوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾ [الأنعام ١٤١]

وقوله تعالى ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ [الرعد٤]

وقوله تعالىٰ ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [المؤمنون ١٩]

وقوله تعالىٰ ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ [يس ٣٤]

وقد جاء الموضعان الآخران لكلمة الجنة التي يراد بها البستان في قوله تعالىٰ ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ ينبوعا أو تكون لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإسراء٩٠-٩١]

(جنة من نخيل وعنب) فالوصف البارز في ذكر الجنة هنا، أنها تشتمل على النخيل والعنب، وقد ذكر العنب هنا بجمع القلة، لمناسبة مقام الإفراد (لك) – (جنة)، بينما تذكر في مقام الكثرة (جنات) بجمع الكثرة كالآية السابقة في سورة (يس) وغيرها ولم يأت بلفظ (العنب) بجمع القلة إلا في موضعين: هذا الذي ورد في سورة الإسراء والموضع الآخر في سورة عبس في قوله تعالىٰ ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ [عبس ٢٨]

ولعل تأويل ذلك أن المراد ذكر نعم الله تعالىٰ بجنسها العام، فقال (حبا) ولم يقل

مثلا حبوبا، كذلك العنب والقضب والزيتون والنخل، وكقوله تعالىٰ ﴿وَيُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان٨]

فالوصف للجنة بقوله (يأكل منها) فيه رسم لصورة الجنة التي أرادها المجادلون المكذبون للنبي ﷺ وهي أن تشمل على كافة أنواع الثمار، فلا يلجأ إلى المشي في الأسواق طلبا للرزق.

وَصْفُ الجَنَّةِ بِاسْمِ المَوْصُولِ

جاء وصف الجنة في القرآن الكريم بلفظ (التي) سواء في إفرادها أو جمعها، وقد أتى هذا الوصف مرتبطا بالفعل(وعد) كقوله تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾[الرعد ٣٥]

وقوله تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ومغفرة من رَّبِّهِمْ﴾[محمد (١٥)]

فجاءت كلمة الجنة على الإفراد والوصف بـ (التي)،وفى ذلك استحضار لما ذكر من مشاهدها، وبناء الفعل (وعد) لنائبه (المتقون) لينصرف الذهن لهذا الخلق، وهو التقوىوقد جاء الوصف بـ (التي) للجنات مجموعة لكن بصيغة البناء للمعلوم، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [مريم٦١]

فكان في التعبير (بالغيب) استعاضة عن بناء الفعل بصيغة المجهول، وجاء اسم الموصول (التي) رابطا معنويا بين جنات عدن ووعد الرحمن وجاء التعبير بكلمة

(الرحمن) وإلحاق (عباده) بها لشمول الرحمة لهؤلاء العباد، وقد شرفهم بإضافتهم إليه، فكان لهم رحمة خاصة، مبالغا فيها ولذلك آثر هذا التعبير على غيره.

وجاء اسم الموصول (التي) رابطا بين جنات عدن وبين والوعد بصيغة المعلوم، في سياق الدعاء، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [غافر٨]

وقد يأتي الوصف للجنة ليرسم بُعد مكانتها وعلو منزلتها، فيرتفع بالنفس وقيمتها حتى تعلو همتها، كقوله تعالىٰ: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الحاقة٢٢]

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ. فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الغاشية١٠].

فجاء الربط فى الآيتين بين الرضا والجنة العالية، فهذا سبيل إلى ذاك والتعبير بالمجاز فى قوله (عيشة راضية) والمقصود مرضية، مبالغة قوية لإظهار الرضا وتمكنه من النفوس، فظهر مشخصا في العيش، لينصب الرضا عليه فكيف بمن فيه.

وقد يأتي وصف الجنة ليرسم مشهد التفاف الأشجار وأغصانها وتراكم ثمارها، كما في قوله تعالىٰ ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا. وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وهاجا وأنزلنا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجًا. لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا. وجنات ألفافا﴾ [النبا ١٢-١٦].

فتدرج المشهد من ذكر السبع الشداد – السماوات ثم وجه النظر إلى ما فيها من سراج – أي شمس – تتوهج بالنور والحرارة ثم ما يجرى من المعصرات وهى " السحائب ذوات الأعاصي،ر فإن السحائب إذا عصرتها لابد وأن ينزل منها المطر

و(من) ههنا بمعنى الباء والتقدير: وأنزلنا بالمعصرات أي الرياح المثيرة للسحاب".[١]

ثم الماء وهو ينصب صبًا – ثجاجًا – وكل ماذكر هو من عوامل إخراج الحب والنباتِ والجنات الملتفة.

فالمشهد قد اشتمل على الأصوات كما في صوت المعصرات وثجّ – الماء واشتمل المشهد- أيضا – على الألوان المتمثلة في الحب والنبات والجنات، وكل هذه الأجزاء تتراص وتترابط في تتابع وتناسق جميل، فكان تتمه المشهد واستكمال صورته في الوصف بكلمة (ألفافا) لتكون خاتمة المشهد ونهاية هذه اللوحة، ووصولها إلى الهدف والغاية وهى تتمثل في الجنات والحدائق الملتفة المتلاصقة في تلاحم وتكاثر وكأنها لفت كل الأجزاء الصوتية والحركية واللونية فى هذا المشهد الخير، فلا يقوم غير هذه الكلمة (ألفافا) بتصوير المشهد وحسن الوصف.

وكثيرًا ما يأتي الوصف في القرآن الكريم بالجملة الفعلية: (تجرى من تحتها الأنهار)فيفيد دوام النعيم واستمراره ورسم حركة جرى الماء في تلك الأنهار، وقد جاء موضع وحيد في القرآن الكريم في وصف الجنة دون استخدام حرف الجر (من) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾[التوبة١٠٠]

ولعل مجيء جملة الوصف (تجرى تحتها) خالية من حرف الجر (من) مبالغة في تعظيم المنزل في هذا المقام، وقد يكون حذف الجر هنا دل على توسع النعيم وشمول جرى الأنهار تحت جنة أصحابها، جعلنا الله من أهلها.

---

(١) الرازى - التفسير الكبير - ط ٣ - دار إحياء التراث العربى - بيروت - ١٩٩٩ - ١١/ ١١.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فالمشهد هنا خاص بدرجة رفيعة لقوم ذوى مكانة خاصة عظيمة، قد بلغوا الغاية في الإيمان والتقوى، فهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، وهم السابقون – أيضًا – الذين اتبعوا سيرتهم ونهجهم بإحسان ممن جاءوا بعدهم على مر العصور.

الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ

وصف الصراط بالمستقيم فيه مدح للمنهج وطريق الحق، فهو موصل إلى الله وجنته، معروف بالوضوح والهداية، وقد جاء الوصف في غير موضع من القرآن الكريم، حيث يقول تعالىٰ: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المستقيم صراط الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ﴾ [الفاتحة ٦-٧]

قال الزمخشري -رحمه الله- هلا قيل اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم؟ قلت: فائدته التوكيد لما فيه من التثنيه والتكرير، والإشعار بأن الطريق المستقيم بيانه وتفسيره: صراط المسلمين، ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين باستقامة على أبلغ وجه وآكده".[1]

وقوله سبحانه: ﴿يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة]

وقوله تعالىٰ: ﴿واللهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة]

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

وقد جاء التعبير في آية الحج باسم الفاعل (لهاد) للدلالة على الاستقبال وترتيب هذه الهداية على أمور سابقة ذكرت قبل هذا في قوله تعالىٰ: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ

---

(١) الكشاف ١/ ١٥.

الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ﴾ بينما جاء التعبير في آيتي البقرة للدلالة على الحال والاستمرار المترتب على الماضي.. وآية البقرة الأولى تحدثنا عن وقوع الهداية ووقوع تحول القبلة فأخبر المولى عز وجل أن هذه هدايته، فيقول تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة ١٤٢]

وفى الآية الأخرى يقول: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ [البقرة ٢١٣]

وفى أكثر من موضع يصف الحق سبحانه المسجد أو البيت أو الشهر بالحرام، فتصير صفة مدح وتعظيم وتكريم بجعل له حرمة عظيمة وذلك في قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وقوله تعالى: ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ [البقرة ١٩٦]

والمقصود بذلك المصلى الذي يصلى فيه الناس ويكون موضع سجودهم وقد يأتي الوصف بالحرام للبيت،وذلك في موضعين، الأول في قوله تعالى: ﴿وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ والثاني في قوله تعالى: ﴿جعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة٩٧]

والمقصود بذلك في هذين الموضعين، البيت نفسه، أي الكعبة المشرفة ولذلك قال (آمين البيت الحرام) أي قاصدين عين الكعبة، بينما قال في الصلاة (شطر المسجد) أي جهته والله تعالىٰ أعلم.

وعظّم المشعر فوصفه بالحرام تكريما وتشريفا،فقال: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة ١٩٨]

وعظّم الشهر الحرام بقوله: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة ١٩٤]

المدحُ والتَّعْظِيمُ في وَصْفِ المؤْمِنِينَ

جاء وصف المؤمنين في كثير من المواضع حاملا المدح لهم بحبهم لله وصدقهم معه. أو وصفهم بالاصطفاء أو الإخلاص أو الصلاح، وذلك حسب ما يقتضيه السياق، فيقول تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فضل الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم﴾ [المائدة٥٤]

(يحبهم) في موضع جر صفة لقوم،(ويحبونه) معطوف عليه ويجوز أن يكون حالا من الضمير المنصوب تقديره: وهم يحبونه (أزلة) و(أعزة) صفتان أيضا، (يجاهدون) يجوز أن يكون صفة لقوم أيضا، وجاء بغير واو كما جاء أزلة وأعزة". (١)

فجاء الوصف بالحب بين القوم وربهم، لأن المقام مقام حب الله، هذا الحب الإلهي هو الذي منعهم من الارتداد والجحود كما فعل غيرهم ثم جاءت صفتهم:

---

(١) التبيان فى إعراب القرآن للعكبرى ١/ ٢١٩.

أذلة على المؤمنون أعزة على الكافرين.وهذه من دواعي الحب لله، ومن صفات الجهاد في سبيل الله، وهو لا يقوم إلا علي حب الله وكذلك قال: (ولا يخافون لومة لائم)وقال الزمخشري: فإن قلت: هلا قيل أذلة للمؤمنين أعزة علي الكافرين ؟ قلت: فيه وجهان. أحدهما أن يضمن الذل معنى الحنو والعطف "كأنه قيل: عاطفين عليهم علي وجه التذليل والتواضع. والثاني: أنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم علي المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم". (١)

وفي موضع آخر جاء وصف المؤمنين بالحب،ولكنه مقيد بالتطهر، كما في قوله تعالي: ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة ١٠٨]

وعلة الوصف هنا أنه مدح للمؤمنين بطهارة قلوبهم من النفاق ونقاء سريرتهم وإخلاصهم، وفي مقابل ما حمله سياق الآيات من ذم للمنافقين الذين أظهروا الإسلام وأخفوا الكفر والنفاق، وكان من مظاهر ذلك أن بنوا مسجدًا سماه الله – سبحانه – بمسجد الضرار، فجاء النهي في صدر هذه الآية: (لا تقم فيه أبدا) وقوله (لمسجد) بالتوكيد باللام والتنكير يفيد التعظيم في سياق مجازي في قوله (علي التقوى) جعل قوائمه وأساس بنيانه التقوى.

وجاء وصف المؤمنين بالصدق في قوله تعالي: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا . مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب ٢٢-٢٣]

---

(١) الكشاف ١/ ٦٤٨.

فجاء وصفهم بالصدق هنا دون غيره من الصفات الحميدة، لإبراز موقف الوفاء والثبات القائم علي الصدق مع الله، وذلك عندما رأوا أحزاب الكافرين مجتمعين في الخندق، فثبتوا علي عهدهم وميثاقهم مع الله، وقالوا (وصدق الله ورسوله) فجاء وصفهم بالصدق وجاء الأسلوب مسوقًا بالتأكيد عن طريق تكرار لفظ الجلالة والرسول (الله ورسوله)، وأسلوب القصر والحصر عن طريق النفي والاستثناء.

وهذا الموقف الإيماني الصادق، كان في مقابل موقف الغدر ونقض العهد مع الله ثم تخلو عن الرسول ﷺ وهو ما بينه في قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا . وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب ١٢-١٣]

فقال المؤمنون: (هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله) وقال المنافقون: (لا مقام لكم فارجعوا) – (إن يريدون إلا فرارا)

ويأتي وصف المؤمنين بصفات أخري غير ما سبق، فقد يصفهم الحق سبحانه بالصلاح ليلفت الذهن الي أثر الصلاح ..صلاح النية والعقيدة والقول والعمل، أو بالاصطفاء أو الإخلاص، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالي: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ [المائدة ٨٤]

فوصف القوم بالصلاح جاء مترتبًا علي أسبابه المتقدمة من صفات الصالحين،وهي الإيمان بالله تعالىٰ وما جاء من الحق والاستفهام في صدر الآية (ومالنا.) يفيد الإنكار والاستبعاد، وقوله تعالي: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ. إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء ١٠٥-١٠٦]

فأضاف العباد إليه سبحانه في ضمير: (عبادي) وهي إضافة تشريف وتعظيم، ووصفهم بالصلاح هنا قد ناسب ميراث الأرض (سواء كانت الجنة أو أرض الدنيا علي لختلاف المفسرين) لأن نقيض الصلاح هو الفساد، والفساد يهلك الأرض والحرث والنسل.. ومن تناسب الوصف وتناسقه، أن وصف القوم في آخر الآية بالعبادة (لقوم عابدين) والتعبير باسم الفاعل (عابدين) تغني تأصل العبادة في نفوسهم واستمرارهم عليها.

وقوله تعالي: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل ١٩]

فقوله (في عبادك الصالحين) محمول علي ما تقدم من قوله: (وان أعمل صالحا)، وعلي ما تقدم أيضًا من صفات عباد الله الصالحين من شكر نعمة الله.

وقد وصفهم بالاصطفاء، كما في قوله تعالي: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل ٥٩]

علي اعتبار أن الوصف باسم الموصول (الذين)،فإنه مع جملة صلته (اصطفي) يعطي دلالة علي الموقف الذي نحن بصدده في هذه الآية حتى آثر التعبير بالاصطفاء دون غيره من التقوى أو الصلاح مثلًا، وذلك أن الكلام متصل بما قبله في قوله تعالي: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [النمل٥٧-٥٨]

فأمر " بالتحميد علي الهالكين من كفار الأمم والصلاة علي الأنبياء عليه السلام، وأشياعهم الناجين، وقيل: هو خطاب للوط عليه السلام، و أن يحمد الله علي هلاك

كفار قومه. و يسلم علي من اصطفاه الله ونجاه من هلكتهم وعصمه من ذنوبهم ".[١]

وفي سورة الصافات تكرار الوصف بالمؤمنين، و ذلك لتكرار الموقف أو المشهد الذي حمل ذلك الوصف فجاء قوله: (عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) أربع مرات:

الأول: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ. إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾.

الثاني: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾

الثالث: ﴿سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾[١٢٠-١٢٢]

الرابع: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾

فتكرر الوصف بالإيمان في المشاهد الأربعة، لأن جميعها كانت في مقابلة كفر الكافرين و إنكارهم و جحودهم، وقد ذكرهم الله جميعا بالمحسنين، لأنهم لم يقابلوا السيئة بالسيئة بل باللين والإحسان.

و قوله تعالي: (سلام علي نوح في العالمين)، و بعده: (سلام علي إبراهيم) ثم (سلام علي موسي و هارون) و كذلك: (سلام علي إلياسين). و لم يقل في قصة لوط ولا يونس و لا إلياس: (سلام)، لأنه لما قال: (وإن لوطا لمن المرسلين)، و إن يونس لمن المرسلين)، و كذلك: (وإن إلياس لمن المرسلين)، فقد قال سلام علي كل واحد منهم، لقوله في آخر السورة (وسلام علي المرسلين)

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٧٥.

و قوله تعالي: (إنا كذلك نجزي المحسنين) في سائر الرسل. و قال تعالىٰ في إبراهيم: (كذلك نجزي المحسنين) بدون (إنا)، ولم يقل ذلك في شأن لوط و يونس. للاكتفاء بما تقدم ذكره، فكفي عن الثانية". (١)

أما وصف عباد الله بـ: (المخلصين)، فقد جاء في ثمانية مواضع من القرآن الكريم، خمسة في سورة الصافات وحدها. و موضع في (يوسف) في قوله تعالي: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [الآية ٢٤]

و موضع في سورة(الحجر)، في قوله تعالي: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الآيتان٣٩-٤٠]

و موضع في سورة (ص)، في قوله تعالي: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الأنبياء٨٢-٨٣]

أما مواضع (المخلصين) في سورة الصافات، فهي في قوله تعالي: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [٤٠]

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ. إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [٧٤]

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ. إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [١٢٨]

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ. إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [١٦٠]

---

(١) انظر: أسرار التكرار في القرآن ص ١٨٠ - وكشف المعاني ص ٣٠٨.

﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ. لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [١٦٩]

وبالنظر إلي المواضع الثمانية، نجد أن وصف العباد بـ (المخلصين) قد جاء ف معرض التخلص من موقف سوء وفحش، أو سلوك جحود وعصيان، وفي لسان العرب (مادة خلص): خلص الشيء يخلص خلوصًا وخلاصًا: إذا كان قد نشب ثم نجا وسلم. وأخلص الشيء: اختاره. والمخلص: الذي أخلصه الله جعله مختارًا خالصًا من الدنس.

الذَّمُّ وَالتَّحْقِيرُ

قد يأتي الذم والتحقير في مواضعه من القرآن الكريم لذم شخص أو خُلق، فيظهر في صورة منفرة تأباها النفس السوية وتفر منها، فجاء وصف القوم بالفاسقين في وقوله تعالي: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة ٨٠]

فوصف القوم بالفاسقين، وكان مقتضى السياق أن يصفهم بالكافرين حملًا علي ما سبق من قوله (كفروا بالله ورسوله). ولكن الوصف بالفسوق يأتي في مواقف إيذاء الكافرين للمؤمنين واعتدائهم عليهم، وهذا ما دل عليه سياق الآيات قبل هذه الآية في قوله تعالي: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة ٧٩]

وكذلك قوله تعالي: ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ [الصف ٥]

فلم يكتفوا بعدم الإيمان والاتباع، ولكنهم عصوا وخرجوا عن الطريق المستقيم وآذوا موسى عليه السلام، ولذلك وصفهم بالفاسقين.[١]

وقوله تعالي: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ. سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المنافقون ٥-٦]

فهذا التصرف المعاكس منهم للرسول ﷺ (لووا رؤوسهم)، أى: حرّكوا رؤوسهم باستهزاء وسخرية فى وصَدّ واستكبار، مما أدى إلي وصفهم بالفاسقين. وقد يأتي وصف القوم بالفساد وليس بالفسق، كما في قوله تعالي: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت ٢٩-٣٠]

فطبيعة الأفعال هنا وتعددها جلبت الوصف بالفساد فهم [يأتون الرجال – ويقطعون السبيل – ويأتون في ناديهم المنكر]، وهذا كله إذا اجتمع كان فسادًا وإفسادًا وقد جاء في موضعين آخرين من القرآن الكريم ذم هؤلاء القوم دون وصفهم بالفساد، كما في قوله تعالي: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ. إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف ٨٠-٨١]

فلم يقل (قوم مفسدون) ولعل السبب في ذلك أن الذم والتحقير كان بسبب فعل واحد في هذا الموقف وإتيان الرجال،دون أن يذكر معه فعلا آخ قال تعالي:

---

(١) فى اللسان مادة (فسق) الفسق: العصيان، والترك لأوامر الله تعالى والخروج عن الحق، والميل إلى المعصية.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل ٥٥]

فالوصف بالإسراف في آية (الأعراف)، والوصف بالجهل في آية (النمل) كلاهما يبرز جانبًا من حال هؤلاء، فقد أسرفوا أي أفرطوا إفراطًا في إتباع نبي الله لوط، وهم في الوقت ذاته قد جهلوا تحريم هذه الجريمة وعقوبتها عند الله.

فجاء بالاسم: (مسرفون) في آية الأعراف، وجاء بالفعل: (تجهلون) آية النمل، لأن كل إسراف جهل، وكل جهل إسراف، ثم ختم الآية بلفظ الاسم موافقة لرؤوس الآيات التي تقدمت، وكلها أسماء: (مفسدين (٧٤) – مؤمنون (٧٥) – كافرون (٧٦)– المرسلين (٧٧) – جاثمين (٧٨)– الناصحين (٧٩) – العالمين (٨٠) وفي سورة النمل وافق ما قبلها من الآيات وكلها أفعال [١]: ﴿لقوم يعلمون وكانوا يتقون – وأنتم تبصرون﴾

وقوله تعالي: ﴿ولوطًا إذا قال لقومه أتأتون الفاحشة﴾ [الأعراف ٨٠] استفهام غرضه البلاغي التبكيت والتعجب الإنكاري وقد جاء بعده قوله تعالي: (إنكم لتأتون الرجال) (الأعراف ٨١) فزاد مع الاستفهام (إن) لأن التقريع والتوبيخ والإنكار في الثاني أكثر. ومثله في سورة النمل: (أتأتون) (الآية ٥٤)، وبعده (أئنكم لتأتون الرجال) فجمع بين: (إن – وأئن) وذلك لموافقة آخر القصة، فإن في الآخر: (إنا منجوك) (٣٣) (إنا منزلون) (٣٤)، وجمع القصص المذكورة لم يأت الجزاء فيها مؤكدًا، فقد جاء في الأعراف (فأنجيناه) (الآية ٦٤)، وفي النمل: (فأنجيناه وأهله إلا امرأته) (الآية ٥٧)، أما في العنكبوت فالجزاء: (إنا منجوك وأهلك) (الآية ٣٣) و(إنا

(١) أسرار التكرار في القرآن الكريم ص ٨٦.

منزلون). فاقضي تكرار التأكيد لمعني التقريع مرتين: بالاستفهام الإنكاري – وإن).[1]

وقد يأتي وصف القوم بالظالمين، والظلم – كما في اللسان – وضع الشيء في غير موضعه والجور ومجاوزة الحد، وقد يأتي الوصف بالظلم في القرآن لينصرف بالدرجة الأولي إلي الشرك والكفر بالله، فهو ظلم له سبحانه – وهو ظلم للنفس، لأنه الظالم سقط في مستنقع الهلاك ومن ذلك قوله تعالي: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ. وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة ٢٥٨]

فلم يقل القوم الكافرين حملا على ما تقدم من قوله: (الذى كفر) لأن التقريع هنا موجه لموقف بذاته وهو الشرود عن الحق ونسب هذا النمرود الموت والحياة لنفسه واستطاعته عليه، وهذا من أبلغ الظلم.

وقوله تعالى ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وهنا أيضا – لم يقل (القوم الكافرين) حملا على قوله قوما كفروا لأن التبكيت والتوبيخ على موقف محدد وهو ارتدادهم عن الإسلام بعد أن رأوا بيانه وعلموا، أنه حق، ففيه ظلم زائد على الكفر. وقوله تعالىٰ {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وقوله سبحانه وتعالىٰ فى نفس السورة الكريمة فى موضع آخر ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ

(١) نفسه.

(١) فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ جاء الوصف بالظلم هنا، لأن الموقف في الآيه محمول ى ما سبق وهو ما أقاموا من مسجد، سماه الله بمسجد الضرار، وأرادوا به التفريق بين جماعة المسلمين، وذلك فى قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة ١٠٧]

ولاشك أن الاعتداء على المسلميين بالضرر والتفريق والإرصاد والحرب هو أبلغ الظلم، ولذلك جاء وصفهم بالظالمين ومما زاد الوصف تهويلا وتقريعا أنه ىجاء فى سياق استفهام الإنكارى والتعجب فى المشاهد الثلاثة الأخيرة.

وقد يأتى الوصف بالظلم بالجملة الفعلية فيدل دلالة مغايرة لما سبق وذلك فى قوله تعالى ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ(٢) أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران ١١٧]

(قوم ظلموا) وصفهم بالجملة الفعلية وعلة ذلك -والله أعلم- أن الوصف بالظلم لم يكن عن موقف أو شيء فعلوه وانتهى، ولكن الظلم هنا متجدد، فهم يستمرون فى حركتهم العدائية للإسلام ويستمرون فى إنفاق أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، ولذلك تكرر ذكر الظلم فى الآية ثلاث مرات لمذيد من البيان والتأكيد، ولكى يبين نفوسهم الظالمة ويثير الذهن إليها قدمها على الفعل فى قوله ﴿أنفسهم يظلمون﴾ .

أما إذا كان الموقف الوصفى حاملا لبيان الكفر الذى هو نقيض الإيمان فيأتى

---

(١) شفا جرف هار: طرف حفيرة فى نار جهنم. فانهار: سقط بنيانهم.

(٢) صر: برد شديد أو نار محرقة.

الوصف به، وذلك كما فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة ٦٧]

فالموقف هنا يبين وصف هؤلاء تجاه الرسالة (القوم الكافرين)، فالموقف هنا موف تبليغ، والناس بصدده مؤمن وكافر ولأنه موقف رسالة وتبليغ، جاء صدر الآية بقوله (ياأيها الرسول) دون (يا أيها النبى) مثلا وقال (بلغ) – (رسالته)، وهو ما جاء أيضا – فى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ فالمشهد بين موقف التكذيب للرسالة، والكفر بالبلاغ الحق، فوصفهم بـ (قوم كافرين)، فلا يصلح هنا وصفهم مثلا: بالمفسدين أو الظالمين أو المسرفين أو نحو ذلك، وإن كانت هذه الصفات متحققة فيهم، إلا أننا هنا بحكم الموقف المحدد الذى برزت فيه الصفة الغالبة والتصرف المضاد لنبى الله شعيب وهو التكذيب والكفر، والرغبة عن التصديق والإيمان بالرسالة السماوية. وجاء أيضا – وصف القوم الكافرين فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ[1] زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة ٣٧]

فالوصف (بـ الكافرين) هنا محمول على ما تقدم من أسبابه ومظاهره وليس أدل على الكفر – نقيض الإيمان – ممن أحل ما حرم الله أو حرم ما أحل الله

---

(١) النسئ: تاخير العرب للأشهر الحرم، فيحاربون فيها إذا أرادوا ذلك، بأن يبدلوا شهرا مكان الآخر.

وقد جاء ختام الآية هنا بقوله ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوم الكافرين﴾ لأن الجملة الخبريه، وجاءت الواو على الإستئناف، أما فى آية [المائدة ٦٧] فجاء ختام الآيه بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ بالتوكيد بإن، لأن الكلام محمول على ما سبق من إنكار المنكرين وتكذيبهم، والله تعالىٰ أعلم وربما جاءت كلمة الكفر موصوفة بصفة أخرى، وذلك حسب ما يقتضيه الموقف، كما فى قوله تعالىٰ: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة ٢٧٦]

جاء التعبير بـ (كفار) على مبالغة الكفر من هؤلاء، ثم الوصف البليغ بـ (أثيم) لأنهم أحلوا ما حرم الله، بأن جعلوا الربا الحرام حلالا كالبيع، فالكلام محمول على ما سبق فى قوله: ﴿قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة ٢٧٥]

وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ [الزخرف ١٥]

فوصف كفور بالمبين مع تأكيده باللام وإن لأن السياق مبنى على الحديث عن هؤلاء الكافرين الذين جعلوا لله تعالىٰ ولدًا، والولد جزء من الوالد فكيف والكل عباده أ فوحدانية الله ظاهرة لكل ذى بصر

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ. أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ. الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ. قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق ٢٣-٢٧]

فوصف الكفار هنا بأوصاف كثيرة: عنيد، مناع للخير، معتد، مريب، وهذا التعدد فى تلك الصفات ونوعيتها، وما بنيت عليه من صيغ للمبالغة يدل على سوء عاقبة

هذا الإنسان وشدة عذابه الناتج عن قبح فعله وقوله فى الحياة الدنيا، ووصف الضلال هنا بالبعيد، فيه دلالة على شدة الغواية وبعد الضلال وفداحته.

ولفظ الضلال فى القرآن الكريم يأتى أحيانا مطلقا دون وصف كقوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (الرعد) وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر٢٥] فأطلقه دون قيد أو وصف ليكون عاما شاملا ويأتى موصوفا بالبعيد أو المبين أو بالكبير، أو موصوفا فى سياق المفعول المطلق، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الحج١٢]

فالوصف بالبعيد دون المبين -مثلا- للدلالة على شدة بعد الضلال، ولبيان ما عليه هؤلاء من كفر وشطط هائل والوصف بالبعيد يأتي في الأمور المتعلقة بالعقيدة واليوم الآخر وما يكون عليه أهل الشرك والكفر من الصد عن سبيل الله ومحاربة منهج الله ودعاته فهم لا يكتفون بعدم استجابتهم، ولكن يجتهدون في الحرب و الاعتداء علي من استجاب لله ورسوله ومن ذلك قوله ذلك قوله تعالي: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبا ٧-٨]

فتهكموا وسخروا (هل ندلكم.)، ثم اتهموه بالكذب والجنون، فجاء الوصف بالبعيد.

بينما جاء وصف الضلال بالمبين في موضع آخر في قوله تعالي: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ

اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأحقاف ٣٢]

فلم يذكر – سبحانه – سلوكا معاديا ولا اعتداء، ولكن عدم استجابة فحسب، فجاء الوصف بالمبين.

ومن ذلك الوصف ما جاء كثيرًا في القرآن الكريم في مواقف ليست في شدة الوصف بالبعيد، كما في قوله تعالي: ﴿ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران ١٦٤]

وقوله تعالي: ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف ٨]

ولننظر إلي الوصف الوارد في سياق المفعول المطلق بين قوله تعالي: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء ١١٦]

وقوله تعالي: ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب ٣٦]

فجاء الوصف بالبعيد وإطلاق المفعول، لأن سياق الحديث عن الشرك وهو أفدح الذنوب وأعظمها، بينما آية الأحزاب تتحدث عن العصيان، وهو خطاب للمؤمنين ينهاهم عن مخالفة حكم الله ورسوله، وصدر الآية هو: ﴿ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ. ﴾

وجاء الوصف للضلال بالكبير في موضع واحد في القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالي: ﴿ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ [الملك ٩]

فجاء وصف الضلال بـ(الكبير) هنا لينبئ عن حال هؤلاء الكافرين وقت

استقبالهم الرسل في الدنيا، فقد رأوا ما جاءوا به من منهج أمرًا كبيرًا واعتبروه جريمة وكبيرة من الكبائر وفي السياق ما يدل علي ذلك، إذ نفوا نفيًا قاطعًا نزول شيء من الوحي، وهو في قوله: (من شئ) فـ (شئ) بلفظها وتنكيرها ودخول (من) التبعضية عليها في سياق النفي قد يدل علي ذلك، وكذلك سياق الحصر والتوكيد بـ(إن) الدالة علي النفي مع الإستثناء، وإيثار (إن) علي (ما) مثلًا لمزيد من التوكيد وبيان الإصرار علي موقفهم.

أما وصف الشيطان فقد جاء بصفات عديدة في مواضع مختلفة، ومن ذلك قوله تعالي: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ. وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر١٧]

فصفته أنه رجيم، أي ملعون، مطرود من رحمة الله، وإيثار صيغة رجيم علي مرجوم مثلًا، لبيان الكثرة والمبالغة في الرجم، حتى صار الرجم صفة متأصلة فيه لمداومته علي الشر. وقوله سبحانه: (كل شيطان رجيم) أفاد العموم وقد أفاد العموم في موضع آخر عن طريق لام الجنس، وذلك في قوله تعالي: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل٩٨]

فقد جاء التعبير عن إرادة الفعل بلفظ الفعل، لأن الفعل يوجد عند القصد والإرادة بغير فاصل.[1] والفاء لترتيب الاستعاذة علي العمل الصالح، والتقدير: فإذا أخذت في قراءته، فاستعذ، وتخصيص قراءة القرآن من بين الأعمال الصالحة

(١) الكشاف ٢/ ٦٣٣.

بالاستعاذة عند إرادتها، للتنبيه علي أنها لسائر الأعمال الصالحة عند إرادتها أهم.[١]

بينما جاء وصف الشيطان بصفة المريد في موضع آخر، وذلك في قوله تعالي: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج ٣]

فجاء الوصف باسم المفعول (مريد) لبيان أن بعض الناس يريدون اتباعه في الكبر والميل عن الحق، وقد جاء نفس التعبير باسم بالمفعول – أيضًا – في سياق الحديث عن سلوك بعض الناس مع أفعال الشيطان، وذلك في وقله تعالي: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ [النساء ١١٧]

وجاء التعبير بنفس الصفة، وكان باسم الفاعل في قوله تعالي: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ. وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات ٦-٧]

فالمريد والمارد، كلاهما لوصف الشيطان وما انطوت عليه طبيعته من الخبث والشر والتمرد، والمارد: الذي يجيء ويذهب نشاطًا[٢] فالتعبير بالمريد بيّن قصد القاصدين له وإتباعهم إياه ومارد بين فعل الشيطان وكيفية تحركه في عتو وشدة، ولذلك جاءت صيغة (مارد) في سيق الحديث عن السماء وزينتها وحفظ الله لها من تمرد الشيطان وعتوه.

---

(١) فتح القدير ٣/ ٢٦٣.

(٢) اللسان، مادة (مرد).

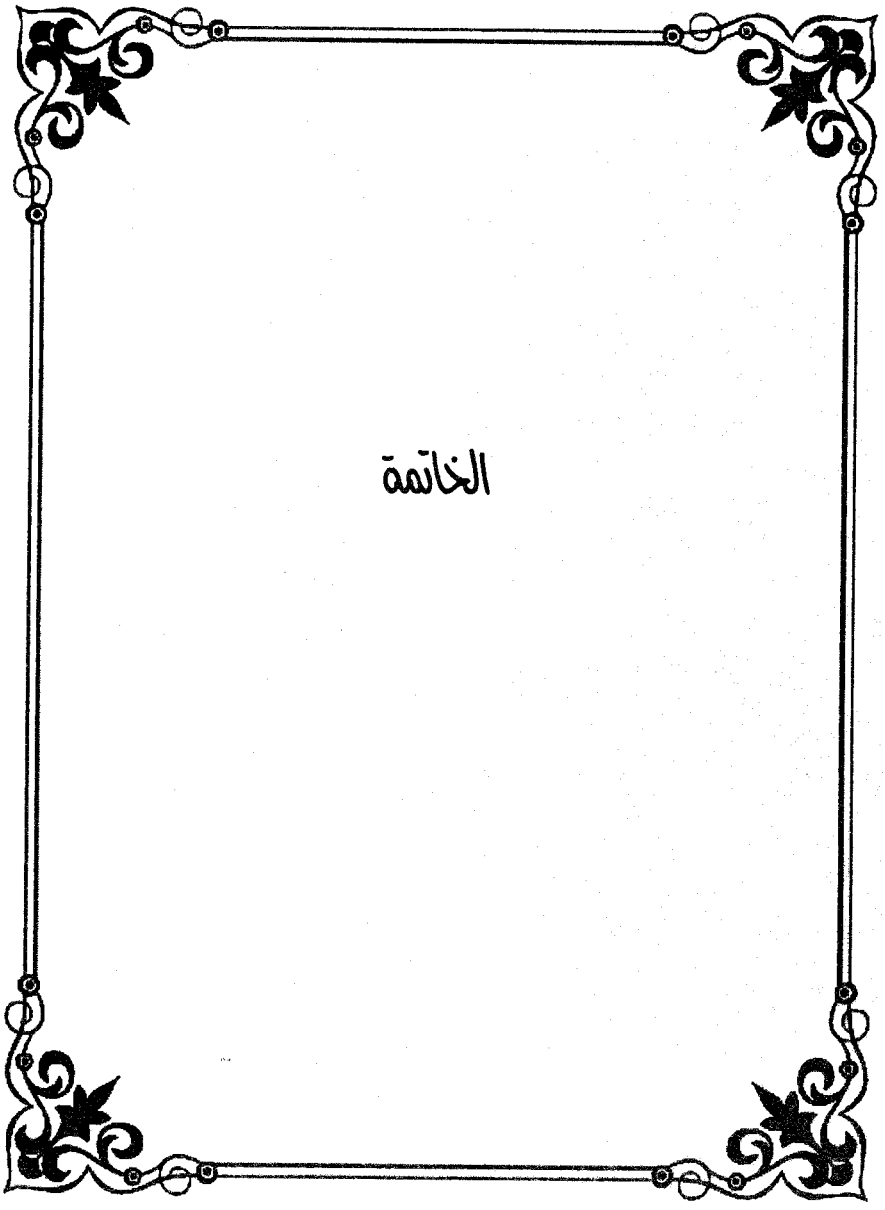

الخاتمة

الخاتمة

إن القرآن الكريم معين لا ينضب وجنة فيحاء لا ينقضى ثمرها، بل يظل ملء السمع والبصر، يملك الفؤاد ويستولى على العقل والوجدان، وإننا بعد هذا التطواف الذى مَنّ به الرحمن نذكر من النظرات من يأتى:

أولًا: إن الإعجاز البلاغى لأسلوب التقديم والتأخير إعجاز فياض عظيم التدفق لا يقع فى حصر، وسبيل التعرض لفيوضاته وتلمس أسراره لا يقف عند حد فى كلمة أو جملة، بل يشهد السياق فى مجملة بستانًا مورقًا يانع الثمار والأزهار، لا تكاد تمد يدًا لقطف ثمره إلا وتجذبك الأخرى والأخرى، فلا تستطيع الفراغ حتى تأتى على البستان كله!.

ثانيًا: الألفاظ القرآنية لها دلالتها فى سياق الجملة فلا يمكن أن يرادف لفظ لفظًا آخر فيتساوى معه فى المعنى تمام المساواة، بل إن الكلمة ذاتها لتتكرر فى أكثر من سياق لتدل على معنى آخر مغاير فى كل سياق، فإذا نظرنا إلى دلالة الكلمة المختارة فى ظل تقديمها أدى ذلك إلى إبراز المعنى فى قوة وجلاء، وساعد على تصوير المشهد فى تدفق وحياة.

ثالثًا: كان لأسلوب التقديم سمة أسلوبية بالغة الأثر فى معرفة خواص تراكيب الكلام وكشف خبايا النفوس والنفوذ إلى أعماقها وتصوير شخصيات المشهد فى صورة حضورية تبين ما عليها من فرح أو ترح أو اضطراب وتوتر أو إيمان أو نفاق أو نحو ذلك.

رابعًا: كان لأسلوب التقديم والتأخير سمة التغلغل والانتشار فى كافة سياقات

القرآن – تقريبًا – وكان له دور بارز فى آيات الأحكام وأساليب الحوار لا يقل بحال عن دوره فى الآيات المكية وما حملته من مشاهد القصص أو الآخرة.

خامسًا: استطاع أسلوب التقديم أن يخاطب العقل والوجدان فى آن واحد، وكان له القدرة على حمل السامع أو القارئ على المشاركة فى تفعيل الموقف القرآنى وما يبثه من معان وآداب رفيعة، فنشّط الخيال وحرّك الأذهان والعقول.

سادسًا: لا يقف التقديم والتأخير عند حد جزئيات اللغة من كلمات وجمل يقدم بعضها على بعض وإنما يمتد ليشمل الآيات والموضوعات الكبرى التى جاءت فى ترتيبها توقيفًا من عند الله تعالىٰ بإجماع العلماء، وما كان لآية أن تسبق أختها أو موضوع هو سابق لأخيه إلا لنكتة بلاغية ودلالة معنوية يثبتها السياق فى مضمونه وبين طياته.

المَرَاجِعُ

ابن الأثير – المثل السائر – تحقيق محي الدين عبد الحميد – المكتبة العصرية – بيروت – ١٩٩٥م.

- ابن الشجري– ما اتفق لفظه واختلف معناه – تحقيق أحمد حسن – ط دار الكتب العالمية – بيروت – ١٩٩٦م.
- ابن منظور – لسان العرب – بإشراف أ. على مهنا – ط ١ – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٩٩٣م.
- الأصفهاني – المفردات في غريب القرآن – تحقيق وائل عبد الرحمن – المكتبة التوفيقية – القاهرة.
- الأعشى – ديوان الأعشى الكبير – ط ١ – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٩٨٧م.
- البرهان في متشابه القرآن.
- البيضاوي – تفسير البيضاوي بحاشية الشهاب الخفاجي – المكتبة الإسلامية – تركيا.
- الحسن بن عثمان المفتى –خلاصة المعاني– تحقيق د. عبد القادر حسين– دار الاعتصام– ١٩٩٣م.
- د. بن عيسى طاهر – المقابلة في القرآن الكريم – ط ١ – دار عمار – عمان الأردن.
- د. عائشة عبد الرحمن–الإعجاز البياني للقرآن–ط٢–دار المعارف بمصر–١٩٨٧م
- د. عبد العظيم المطعني –التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم – ط ١ – مكتبة وهبة – القاهرة – ١٩٩٢م.
- د. عبد العظيم المطعني –خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية– ط١– مكتبة

وهبة- القاهرة- ١٩٩٢م.

- د. عودة الله القيسي -سر الإعجاز-ط١-دار البشير-عمان-الأردن-١٩٩٦م.
- د. عودة الله منيع – سر الإعجاز .
- د. محمد أبو موسى -خصائص التراكيب- ط٤ – مكتبة وهبة – القاهرة- ١٩٩٦م.
- د. محمد الخضرى – من أسرار حروف العطف فى الذكر الحكيم "الفاء، ثم" – ط١– مكتبة وهبة.
- د. محمد العبد – اللغة والإبداع الأدبي – ط ١ – دار الفكر – القاهرة – ١٩٨٩م.
- د. محمد الكواز – الأسلوب فى الإعجاز البلاغى للقرآن الكريم.
- د. محمد عبد المطلب – البلاغة والأسلوبية – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٤م.
- د. محمد موسى التنكير وأثره البلاغى فى سياق القرآن ط ١ – مطبعة الأمل- المنصورة – ٢٠٠١م.
- د. مصطفى السعدنى – البنيات الأسلوبية فى لغة الشعر العربى الحديث – منشأة المعارف – الإسكندرية.
- الرافعى-إعجاز القرآن والبلاغة النبوية-ط٤- مطبعة الاستقامة-القاهرة- ١٩٤٥م.
- الزركشى – البرهان فى علوم القرآن- تحقيق محمد أبو الفضل- دار التراث- القاهرة.
- الزمخشرى-الكشاف-تحقيق مصطفى حسين-ط٣-دار الريان-القاهرة-١٩٨٧م.
- سيبويه – الكتاب – تحقيق محمد عبد السلام هارون – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٧٧م.
- سيد قطب – فى ظلال القرآن – ط ٢٥ – دار الشروق – القاهرة – ١٩٩٦م.
- السيوطى – الإتقان فى علوم القرآن – المكتبة الثقافية – بيروت – ١٩٧٣م.

- الشوكانى- فتح القدير-تحقيق د. عبد الرحمن عميرة-ط٢-دار الوفاء-المنصورة-١٩٩٧م.

الطاهر بن عاشور – التحرير والتنوير – الدار التونسية للنشر – الجماهيرية العربية الليبية.

- عباس حسن – النحو الوافي – ط ١٢ – دار المعارف – القاهرة – ١٩٩٥م.
- عبد الكريم الخطيب – إعجاز القرآن – ط ١ – دار الفكر العربى – القاهرة – ١٩٦٤م.
- الكرمانى-البرهان فى متشابه القرآن- تحقيق أحمد خلف الله -ط٢- دار الوفاء بالمنصورة -١٩٩٨م.
- محمد المنجد – الترادف فى القرآن الكريم – ط ١ – دار الفكر – دمشق – ١٩٩٧م.
- محمد عبد الله دراز – النبأ العظيم– ط ٧ – دار القلم – الكويت – ١٩٩٣م.
- محمد كريم الكواز -الأسلوب فى الإعجاز البلاغى للقرآن الكريم -ط١-مكتب الإعلام والنشر-١٩٩٧م.

فهرس

مقدمة ٥
الفصل الأول: دلالات التراكيب ٩
الاستهلال بالأمر في المعودات ١٢
الاستهلال بالقسم ١٥
الاستهلال بالاستفهام ١٦
الاستهلال بالجمل الخبرية ١٨
في الفعل ومتعلقاته ٢٢
إبداع الدلالة ٢٧
التكرار ٣١
الفصل الثاني إعجاز التقديم والتأخير ٣٧
أولًا: التقديم لمراعاة السياق وحسن انتظام الكلام ٣٧
ثانيًا: التقديم للاختصاص ٥٨
تقديم المفعول ٥٩
ثالثًا: التقديم بين الآية والآية ٦٤
رابعًا: تقديم صيغة على أخرى في بعض آيات السورة الواحدة ٦٤
خامسًا: تقديم آية على أخرى في النزول ٦٩
سادسًا: تقديم موضوع على آخر في السورة الواحدة ٧٣

سَابعًا: التَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ فِى المتَشَابِهِ ٧٧
الفصلُ الثَّالِثُ: الإعجَازُ البَلاَغِيُّ لِلفعلِ المبنِيِّ لِلمَجهُولِ ٨٧
البنَاءُ لِلْمَجْهُولِ وَالتَّصْوِيرِ ٨٧
أَوَّلاً: المشَاهِدُ الغَيْبِيَّةُ ٨٧
ثَانِيًا: المشَاهِدُ الخَفِيَّةُ ١٠٢
البنَاءُ لِلْمَجْهُولِ وَإِفَادَةِ العُمُومِ ١٠٣
البنَاءُ لِلْمَجْهُولِ فِي مَقَامَي الإِنْكَارِ وَالإِيمَانِ ١٠٨
البنَاءُ لِلْمَجْهُولِ فِي مَقَامِ التَّنْزِيهِ عَنِ الذِّكْرِ ١٢١
الفصلُ الرَّابِعُ: إعجَازُ الكَلِمَةِ ١٢٥
المطَرُ وَالغَيْثُ ١٢٧
ثَمَّ ١٢٨
أَكُ – تَكُ – يَكُ ١٣٠
الأَلْبَابُ وَالقُلُوبُ ١٣٢
الفُوهُ وَاللِّسَانُ ١٣٥
بَعْضُ الأَمْثِلَةِ لِلْكَلِمَةِ الَّتِى تَأْتِى مُنْفَرِدَةً ١٣٦
كَلِمَةُ (يَنْعِهِ) ١٣٧
كَلِمَةُ (فَأَجَاءَهَا المخَاضُ)........................ ١٣٧
كَلِمَةُ (ضِيزَى) ١٣٨
كَلِمَةُ (أَبَابِيل) ١٣٩
كَلِمَةُ (رِيشًا) ١٣٩

بَعْضُ الأَمْثِلَةِ لِلْكَلِمَةِ الَّتِى تَأْتِى مُكَرَّرَةً ١٤٠
كَلِمَةُ (نَشَزَ) ١٤٠
كَلِمَةُ (رَأَى) ١٤١
كَلِمَةُ (الوَسْوَاس) ١٤٢
كَلِمَةُ (الوَلِيُّ) ١٤٣
الحُرُوفُ وَدَلالَتُهَا فِى النَّصِّ ١٤٤
الوَاوُ ١٤٥
الفَاءُ وَثُمَّ وَعَامِلُ الزَّمَنِ ١٤٦
التَّصْوِيرُ الفَائِى ١٤٨
ثُمَّ ١٥٠
التَّصْوِيرُ الصَّوْتِيُّ لِلْكَلِمَةِ ١٥٣
صِرّ ١٥٧
الكَلِمَةُ الصَّوْتِيَّةُ فِى مَشَاهِدِ القِيَامَةِ وَالنَّارِ ١٦٠
الفَصْلُ الخَامِسُ: إِعْجَازُ الوَصْفِ ١٦٩
الوَعِيدُ وَالتَّهْوِيلُ ١٦٩
البَيَانُ وَالتَّوْكِيدُ ١٧٥
أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ ١٧٧
المَدْحُ وَالتَّعْظِيمُ ١٨٣
وَصْفُ القُرْآنِ الكَرِيمِ ١٨٩

وَصْفُ الجَنَّةِ ١٩٤
وَصْفُ الجَنَّةِ باسْمِ الموْصُولِ ١٩٧
الصِّرَاطُ المسْتَقِيمُ ٢٠٠
المدْحُ وَالتَّعْظِيمُ فِي وَصْفِ المؤْمِنِينَ ٢٠٢
الذَّمُّ وَالتَّحْقِيرُ ٢٠٨
الخَاتِمَة ٢٢١
المَرَاجِعُ ٢٢٣
فهرسنا ٢٢٧